موسكولوس
محمد نبيل كبها

موسكولوس

"نسق"

فلسطين – نابلس – شارع تونس
بجانب مسجد أم سلمة

موسكولوس

المفكر الإسلامي

محمد نبيل كبها

الطبعة الأولى

٢٠٢٥م

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any from or by any means without prior permission in writing of the writer

جميع الحقوق محفوظة، يمنع ترجمة أو نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأيّة وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية، بما فيه التسجيل الفوتوغرافي على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أيّة وسيلة نشر أخرى، بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها لأغراض تجارية بدون إذن خطّي من المؤلّف.

إهداء

في أزقة مؤسسة رثّة من ذكر حائم وسط نخد بلا إحساس، وأنثى شعنونة ارتدت من غير لباس، انزلقت أنا اللقيط، السافل، القاتل.

إلى كل لقيط لم يخرج من حظيرة الايمان، الى كل سافل عاد اليها، الى كل قاتل ندم على مغادرتها.

تمهيد

"إن القتيل ليس بريئاً من جريمة القتل"

جبران خليل جبران

قبل أن نبدأ

لا أعلم هل كانت قانوناً ديناميكيّاً، أم معناً ميتولوجيّاً، أم لوغوساً يونانيّاً، أم ميتوساً إغريقياً، كل ما أعلمه أني لا أعلم عنها شيء، وأن كل شيء كان غير طبيعي منذ قفولي إلى هذا العالم.. حتى أنا..

الفصل الأوّل

"تمنيت لو كنت كلبا"

ما زلت أتذكر جحوظ عين الطبيبة أثناء اخراجها لرأسي من رحم لا أعلم عن كُنهِهِ شيء، فلك أن تتخيل طفل يبلغ وزنه ٦ كيلوجرام، وطوله ٦٠سم، هل هذا طبيعي؟! إن الوزن الطبيعي للأطفال الذين يولدون في الفترة من منتصف الشهر الثامن إلى الشهر التاسع يتراوح بين ٢ كيلوجرام ونصف إلى ٤ كيلوجرام، والطول الطبيعي بعد الولادة ٤٩,٩ سم، لكن وزني كان ٦ كيلوجرام! وطولي ٦٠سم! لذلك لم يكن حجمي طبيعيّاً.

لم أكن طفلاً طبيعيّاً فيزيائياً، ولكني كنت طبيعيّاً سيكولوجيّاً.

أتذكر كلمات الفيلسوف الإمبريقي والمفكر السياسي الإنجليزي (جون لوك) الذي تحدث عن التابولا راسا "Tabula Rasa"، أو فكرة اللوح الفارغ "Blank Slate"، بمعنى أن الإنسان يولد صفحة بيضاء، ثم تنقش عليها التجربة ما تشاء، وهذه فكرة تشير الى نظرية المعرفة "Epistemology" الإبستمولوجيا، والتي تقول بأن الإنسان يولد دون محتوى أو معرفة عقلية سابقة، ولذلك فإن كل المعرفة تأتي عن طريق التجربة أو الإدراك، ولكني كنت مِمَن يعارض أنصار فكرة الصفحة البيضاء، لاعتقادي أن العقل يولد ممتلكاً لمعرفة مسبقة أصلانية، لذلك كنت أتسائل: "كيف لي أن أخرج من رحم رجل؟!".

كانت صفحة قلبي بيضاء ونظيفة، أحب والدي، لطيف مع إخوتي، عطوف مع جيراني، بشوش مع زملائي، إلاّ أن إشارة القيم الأخلاقية التي كنت أبثها وأنشرها لمن حولي كانت من شَفِيري فقط، بينما تلتف أوهاق التنمر حول عنقي من قبل مجتمع أخضعني للإعدام المعنوي وأنا على قيد الحياة.

أباشر الحياة على هنيّتي، وألج فيها الموالج اللّحجة، والتي أطوي في ثناياها جوانحي، وأكتم في طناياها جرحي الوجودي.

لقد كان هذا بعض ما يَعْتاص على ذهني الانساني البسيط، والمباشر، والغير متمرس في الطغيان والإمتداخ والإجحاف.

عندما أتممت عشرة أعوم، بلغ طولي ١٧٥ سم، ووصل وزني ٧٥ كيلوجرام، علماً أن أي طفل طبيعي في هذا العمر لا يتجاوز وزنه ٤٦ كيلوجرام!

لقد كنت طويلاً وعريضاً كالحقول الإليزية بصورة تترامى وتتجارى نحوها النُّكتات والسخريات، حتى أن سيقاني كانت كبوابة البارادیسوس المتقوسة للخارج لضخامتي.

أما عن العائلة فلا أعلم عن أمي شيء، سوى أن روحها غادرت الحياة منذ نعومة أظافري، أما عن أبي فقد كان يعيش لأخوتي، ولم تكن له أي علاقة مع الجنس الآخر بعد وفاة أمي، عائلتي مكونة من سبعة أفراد، كنت الأوسط بينهم، وكنت أحبهم جدّاً، ولكنهم لم يبادلوني هذه المودّة لبدانتي المرعبة والبشعة، بل كانوا يستعرّون منها، ويصدفون عني أمام زملائهم وأصدقائهم، لأني كنت أُهكومة الجميع أينما لُحت وغدوت.

حتى والدي كان يقابلني بالتهكم دائما، ويسخر من سمنتي، ويشيح بنظره عني، ويرميني بأقذع النعوت "الباندا القبيح"، "الدب الدميم"، وغيرها، ولكن كانت الكنية الأحب اليه هي "موسكولوس"، ولا أدري مأتى هذا اللقب ورغبته الجارفة لرميي به؟!

يفيض بالحركة والضحك عندما يقذفني به، بينما تسقط كالقنبلة على مرابع جسدي، لتخطف قطعة مني في كل مرة.

أما عن المدرسة، فقد كان زملائي يتجنبون اللعب معي، وينفرون اثناء تواجدي بينهم، ويمتنعون عن الخوض في أي حديث يتشاركون به حينما أكون بالجوار.

عند تشكيل فريق كرة القدم مثلا، كان الجميع يستثنيني من المشاركة، واذا وقعت الصدفة وتم اختياري للّعب في احدى الفرق، فإن ذلك لعلة شح اللّاعبين، وبعد أن أكرهوا على اختياري، يتحالفون على تعليقي في شباك المرمى، مع أني كنت لا أحب أن أكون حارس مرمى، بل كنت أرغب أن أصير كالهداف الجزائري (رابح ماجر) والذي كان يلعب لنادي بورتو البرتغالي في الثمانينات من القرن الماضي، وكان يُعتبر من أفضل لاعبي كرة القدم في تاريخ الجزائر، حيث صُنِّف خامس أفضل لاعب إفريقي القرن بعد "جورج وياه، روجيه ميلا، عبيدي بيليه، ولخضر بلومي"، كما صُنف عام ٢٠٠٤م أفضل لاعب عربي في القرن الـ٢٠ في تاريخ كرة القدم العربية، وهو أول عربي يفوز بدوري أبطال أوروبا، كما أنه حاز على الكرة الذهبية الأفريقية عام ١٩٨٧م.

ولشدّة حبي له كنت متيما ب المسلسل التلفزيوني الياباني من فئة الرسوم المتحركة "الكابتن رابح" تيمّناً به، وتابعت كل حلقاته على قناة سبيستون.

لكنهم كانوا يغصبونني على حراسة الشباك لضخامتي ووزني الثقيل، حتى مدرس الرياضة كان يُكرهني على ذلك، فقد كنت أغطي مساحة لا بأس بها، يصعب على الخصم تسجيل هدف من بين كرشي وترهلاتي.

أمّا عند خروجنا للتخييم، كانوا يزمّون شفاههم بعيداً عني، إلا في كرشي، حيث يجدون مساحة عريضة لنكاتهم الساذجة وتعبيراتهم الغريرة، وفي نهاية طنزهم يقلبون صفحة وجهي.

ولا أخفيكم أن هذه الدياجير خلّفت حلماً مكسوراً بداخلي لم أرغب في أن أغادر فصوله، بل أصر زملائي على رحيله حينما لم يكترثوا الى تحطيم حقولي.

جاهدت أن أنقل لوالدي ما يحدث معي، لكنه لم يكن يبالي بندفات الثلج التي تتهاوى على رأسي يوميّاً في هذه المدرسة، أو بالحجارة الملقاة على كاهلي في محيط دائرتنا العائلية، بل على العكس، كان يزيد ويزيد ويزيد، فينشب أسنانه في بطني المتدلي كل صباح وكأنه وجبة فطوره.

لقد تعرّضت في صغري للسعات من القذع، ولهيب من السباب، والذي كان أحياناً ينتهي أحياناً بتعنيفي وضربي، حتى أذكر أنني ذات مرة كنت أجلس لوحدي على حافة الطريق أثناء انتهاء الدوام المدرسي، فتحلّق حولي بعض الزملاء، ثم راحوا يتفرّسون في وجهي، ثم أطلقوا صيحة واحدة: "موسكولوس.. موسكولوس.. موسكولوس"، ثم أخذوا يلقون علي بالحصى ولبّ الفاكهة وهم يحملون هواتفهم ويصورون عتمة أفعالهم، غير عابئين بالوجبات الدينية التي أطعمونا إياها المدرسين في حصص الدين.

لا زلت أذكر قذائفهم أمام المنعطفات الكبرى التي تتخلق في داخلي الميت ومشاعري المطحونة، والتي كانت تشبه السكاكين التي تحركها شراهة الحيوانات، وكل ذلك لعلة لا دخل لي فيها، فالانسان مسير في صورته وخلقه، فهو لا يختار شكلَه أو ملامحه أو صورته أو جنسه أو أبويه، بل إن هذه أمور قد قدَرها الله تعالى وكتبها في اللوح المحفوظ قبل يخلق الإنسان، كما أن الجمال الحقيقي لا يعرّف بوسامة الوجه والقوام، بل بجمال الروح كما قالت الشاعرة والكاتبة الامريكية "دوروثي باركر"، حتى ربنا -سبحانه وتعالى- لا ينظر الى أجسامنا، ولا إلى صورنا، بل الى قلوبنا وأعمالنا.

لا زلت أتذكر أحد زملائي والذي قام بضربي بقلم الرصاص في عيني، فانفجر الدم، وعندما مسحته تبين لحسن حظي أنها جائت في الثلم العلوي لجفني، قريبة بمليمترات من حدقة عيني، لم تشغلني الضربة بقدر ما كان يشغلني جفاف أبي نحوي، لذلك لم أذرف دمعة واحدة، وعندما عدت للمنزل تيقّنت بدوري أنه لا طائلة من البوح في نشيجي ازاء خواء روحه، لأنه لم يستفسر عمّا حدث معي رغم رؤيته لبقع الدم حول عيني.

والدي كان غولاً والغاً في عروقي، يشعل ضوء الغرفة، وينزع الغطاء من فوقي، يوقظني في الخامسة صباحاً كي أهرول حول حيّنا الذي نقطن به، بدلا من أن يدعوني لإقامة الصلاة والإزدلاف الى الله، ولكن فاقد الشيء لا يعطيه، فقد كان أبي ملحداً.

كنت أتوخى توبيخه، فقد كان يوقظني أحياناً وسط وابل من اللكمات، وقذائف من الكلمات التي تنتدح في وجهي كل صباح كي أخرج من البيت لأدور حول حيّنا، فأقوم مترنحاً وعيناي مرهقتين لممارسة الرياضة وقطع المسافات البعيدة للتقليل من وزني حتى تنقطع أنفاسي.

بطني من الخارج عبارة عن كتله لحمية ضخمة تتكرش أمامي، مما كان يعيق حركتي اثناء تطوافي الطويل، وبالرغم من ذلك كنت أهمّ بالركض كي أتخلص من دهون بطني الحشوية وعواء والدي الذي كان يعدو ورائي.

جولتي تمرّ بحديقة الحي، ثم بسوق الخضار، ثم الدكان الذي ابتاع منه، ثم المخبز وكان عبارة عن كُوّة في الجدار إلى الدّاخل، توقد فيها النّار، وتُلقى فيها رقائق العجين حتّى تنضج، ثم المسجد الذي يصلي فيه أهل حيّنا، وأخيراً مدرستي، والتي في غالب الأحيان كنت أتكأ على سورها من شدة التعب، وأحيانا أجلس في باحتها فآخذ نفساً طويلا، وأشهق مثله، وأطلق زفرة عميقة، أكرر ذلك قبل أن أعود أدراجي للقبر الذي أسكن به.

كلما توقفت عند مدرستي المحفوفة بالخشب المحفور الحافل بالزّخارف، ذات الأعمدة الرخامية، عالية البهاء، فسيحة الفناء، وأجلت النظر في بهوها الفسيح وداخل أورقتها، استيقظت الدبابيس التي غرسها زملائي في أرض قلبي، والذي ألزمني فيما بعد أن أنزعها دبوساً دبوساً لأنظف ألم لفيفهم من قلبي المنكسر.

لا أخفيكم أني كنت أكره مدرستي، لذلك كنت أفضل أن أروّح عني على جنبات الحديقة، وأراجع محفوظي، فرئة الأرض نظيفة فوقها.

في احدى المرات ارتديت نعلي المخصوفة كي أدور بحلقتي المعتادة، مع أن الأمر يتطلب أن ترتدي حذاء زيوس، أو فلاش، كي أنهي جولتي في ثوانٍ معدودة فقط، بدلا من أن أقضي ساعة كاملة ألف فيها حول حيّنا البارد.

كنت أمارس رياضتي احدى الصباحات كعادتي، وعندما وصلت الى مدرستي الملعونة، كان العرق يترشح مني، وبالكاد كدت أن ألتقط أنفاسي، استندت على حائلها، ثم قلت في نفسي:

"يا لقيء الزمن! لماذا ينفذ وقودي دوماً بمحاذاة هذا المكان الملعون؟!"، وما لبثت قليلا حتى صفعتني التعاليم المدرسية على مؤخرة رأسي.

تذكرت الكاتب والشاعر والروائي الفرنسي "فيكتور ماري هوغو"، والذي كان يقول دائماً: "من يفتح باب مدرسة، يغلق باب سجن"، ولكن ماذا مع مدرسة تغلق أبوابها في وجهي كل يوم يا هوغو؟!

انتهيت للمنزل بعد أن أنهك التعب كل خلية بجسدي، فتحت الباب وكنت أتمتم في سري: "لماذا يكرهني أبي؟ ولماذا يحاسبني على بدانتي البيولوجية والتي ليس لي أي علاقة بها سواء على صعيد التغذية السيئة أو قلة نشاطي البدني؟ لماذا يجبرني على الركض كل صباح؟ لماذا يمنع عني الطعام؟ ألا يعلم أن سمنتي طابعها وراثي وأنني أعاني من وباء البدانة!!".

كان أبي يجلس على الأريكة أثناء دخولي للمنزل، تفوح منه رائحة الكره لي، وما أن دنوت بشافيته حتى ضيّق عينيه ورمقني بكشرة نابت عن مجلد كامل يفسر به كرهه لي من غير سبب.

نشر أسنانه في واقعي الافتراضي، ثم راح يغثوا قائلا: "بماذا تُتَمتم؟"، فأجبتهوكان رأسي محني للأسفل: "لا شيء"، فقال لي: "أحسبك ترمي بكلمات نحوي؟"، التزمت الصمت، فأحيانا يستوجب في بعض المواقف أن تصمت، فيكون الصمت هو الجواب، أو تفادِ لمصيبة قد ترجع بضرر كبير على صاحبها.

أبي أخوب في معاملته لي، يعمالني كنغِل، حيث كان يهوي علي بالصراخ وأحيانا ً باللطم، بدلا من أن يهوي علي بقبلة هادئة يمسح عبرها آلاف القصص الحزينة من على كاهلي.

يصرّ على دكتاتوريته، ويقود ساحة حرب حقيقية تطوّق جميع جهاتي، تغطي فضاء رؤيتي، وتفشل قدماي في تحديد زاوية الهرب.

كل زاوية في بيتنا تسطر لحظة عذاب عشته معه، مما ولّد في بطني حقداً دفيناً على والدي وأخوتي، تماما كحقد أخوة يوسف على أخيهم يوسف، ولكن الفرق هو أن يعقوب -عليه السلام- كان يحب ولده يوسف -عليه السلام- لكن والدي كان يكرهني.

احدى الصباحات صرخ والدي في وجهي بعد عودتي من طوفاني حول الحي، وقال لي: "على هذا الكرش أن يختفي رغما عنه يا موسكولوس".

سحبت شهيقا كبيراً الى صدري، ثم نفخته على صورة زفير يحمل في جعبته

السخط والقهر والإستياء، فتصاعدت منه صيحاته النشاز في الهوار وتجمعت كأرتال فوق جسدي، ثم انطلقت كالأسهم حتى اصطدمت وتكسّرت في صفيحة وجهي المربعة والكبيرة.

أعرضت عن نداء والدي الذي تبعثرت صيحاته في الفراغ، فكان صمتي سببا لإشتعال حمم من النيران، فما كان منه إلا أن وثب علي من الخلف كالبغل على بغتة، فتعرقلت قدمي برجل الطاولة، لأسقط كبرج عملاق نحو الأرض.

أثناء سقوطي كانت تتهاوى حياتي أمام أعيني وتتمزق إلى أشلاء، صعد والدي فوقي، وانهال علي بالضرب من كل الجهات، وكانت لكماته وافية، ولكنه كان كمن يضرب في عجينة البيتزا.

كان بإمكاني أن أقضي على والدي بصفعة واحدة، فهناك فرق في الحجم بين الصفر والواحد، ولكني أخذت بعين الاعتبار أنه والدي، ولكنه حقير، انطلقت أثبت لنفسي قدرتي على التحمل، وبدلا من أن أضربه رحت أصد لكماته القارسة بكل سهولة، مما أثار امتعاضهُ، وعجز أمامي لينهق قائلا: "أنت دبّ جبان، لا فائدة ترجى منك ومن كرشك"، ثم نهض عني، وغادر.

عندما انتهى والدي من ضربي، كان وجهي قد انتفخ كالبالون، وتضخمت وجنتي، ذرفت بعض القطرات من الدمع ولكني لم أبكي، وكيف لي أن أولول في بيئة كان التلويح بالعنف فيها شيئاً عاديّاً؟!

أشبه بساحة لصراعات أسريّة وعائليّة متّقدة بين فردين فقط على وجه التحديد، ولقد بان للجميع رصد تلك المعارك الكلامية والإشتباكات اليدوية التي تشتعل ثم تخبو في خضم حرب كبرى بيني وبين والدي.

تماما كحرب "الكلب الضالّ" والمعروفة بحرب "بيتريتش"، والتي حدثت في ١٨ أكتوبر ١٩٢٥م، حيث كادت الحرب أن تندلع بين اليونان وبلغاريا بعد أن عبر كلب ضال الحدود، وتسبّب في اندلاع حرب دولية بين اليونان وبلغاريا سرعان ما أخمدت.

ولكن الفرق هو أن والدي ما زال يُعلن الحرب على كلبه الضال، كلب قتلته النوستالجيا وحنينه الى الماضي، ولذلك عبر الحدود على الجغرافيا، وكسر المسافات في ذاكرته المنطفئة.

كانت طفولتي قاسية، والعداوة بحقي مفرطة، وكنت منبوذا من المجتمع، لذلك

نأيت بنفسي أن أسمع وذء الناس ونظراتهم الكريهة نحوي، فاتخذت قبو المنزل مسكناُ لي.

أحيانا كنت أهرب من واقعي المرير الى الطبيعة، وأجلس على احدى تلالها، أراقب الطيور والحيونات.

كان يوجعني كيف ترعى الكلبة صغارها بحب واهتمام تحت تلك الشجرة، وكيف ترضعهم بحنان لا يُصدق!

كان يؤلمني كيف تدافع القطة عن صغارها بشراسة أمام تلك الأفعى، وتُظهر سلوكًا عدوانيًا تجاه أي تهديد محتمل لهم، ثم تنقلهم الى بيئة آمنة لحمايتهم من أي خطر يلحق بهم، وأحيانا تقوم بتحريكهم إلى مكان أكثر دفئًا، ثم تحتضنهم، ثم تقوم بلحسهم وتنظيفهم وتقبيلهم!

إذا كانت الحيوانات تفعل ذلك مع صغارها! لماذا يصر والدي على فرد عضلاته إزاء فضاء نَصّي المفتوح له على مصراعيه تحليلا وتفسيرًا وتأويلا لكي يحضنني؟!

ألست طفله.. لماذا لا يحضنني؟

قرأت مرة لأحد الفلاسفة: "إن الحضن هو أكثر الأماكن الضيقة اتساعاً".

إن الحضن مساحة فيزيائية محدودة، لكن يمكن طي ملايين الفضاءات في فضائه، واستيعاب مسافات فلكية من المشاعر والأحاسيس.

لقد أيقظت هذه القطة نار الغيرة في قلبي، وأعادت تلك الكلبة رسم المشهد الأنتولوجي في عقلي من جديد، وتمنيت لو كنت كلباً!

الفصل الثاني

"نطفة حرام"

أثناء سرحاني في الطبيعة وشرودي في التفكير، كان كثيراُ ما يحملني الشك العاطفي إلى طرح العديد من الأسئلة التي أفضت بي الى الإبطال العاطفي، كاسرةً بذلك الحصار المفروض حول هويتي، فمن أنا؟ ولماذا لا يقبلني والدي؟ ولماذا أراهُ يلاعب ويداعب أخوتي ويضمّهم ويقبلهم، ثم يقف عندي ويرفسني بحوافره؟! لماذا يبغضني والدي؟

لا أذكر ولو لمرة واحدة أن والدي طبع قبلة على خدي، أو على جبيني، أو حتى همّ بذلك! مع أن ذلك ضرورة دينية، فالتربية بالتقبيل منهج نبوي مارَسَه سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم- مع أبنائه، ومع كثير من صغار الصحابة -رضي الله عنهم- بل أخذ رسولنا -صلى الله عليه وسلم- بعين الإعتبار أن التقبيل ينطوي تحت جناح الرحمة، والتي يجب أن يشعر بها الطفل، ويمارسها الآباء مع أبنائهم.

فلقد جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: ("قبَّل رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الحسنَ بنَ عليٍّ وعِندَه الأقرَعُ بنُ حابسٍ التميميُّ جالسًا"، فقال الأقرَعُ: "إن لي عشَرةً من الولَدِ ما قبَّلتُ منهم أحدًا"، فنظَر إليه رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ثم قال: "مَن لا يَرحَمْ لا يُرحَمْ").

وفي رواية أخرى أنه جاء أعرابي وهو "الأقرع بن حابس" إلى النبي عليه الصلاة والسلام، فرآه يُقبِّل الحسن والحسين، فقال متعجبًا: "أتُقبِّلون أبناءكم، إن لي عشرةً من الأبناء ما قَبَّلْتُ واحدًا منهم"، فقال له النبي عليه الصلاة والسلام: "ما أصنع ان نزع الله من قلبك الرحمة ".

إن التربية بالتقبيل تشبع الجانب الوجداني والنفسي للطفل، وهي من الأمور المحمودة لما لها من أثر إيجابي على نمونا النفسي والعاطفي، ولكني كنت أفتقر لذلك جدّاً، ما أحال جبهتي إلى صحراء جافة.

أحيانا يشتعل الصراع الداخلي بين عقلي وقلبي، فأشحذ منجلي لكي أطيّر به عنق والدي، لكن سرعان ما توقظني التعاليم الدينية، وأتذكر قوله تعالى: "وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (14) وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(15)" لقمان.

ثم ما تلبث وجهتي قليلا، حتى يتلوّن الموقف الديني فيها ضد تعاليمه! فكيف لي أن أطيع والدي أو أن أحسن إليه وهو يناديني تارة بالباندا القبيح، ومرة بالدب الدميم،

وأخرى بالفيل العملاق، وغيرها بالغوريلا القبيحة، وفي المعظم بموسكولوس؟! ألم يَعُقّني قبل أن أعُقّهُ؟

ألم يأتي في الأثر أنه جاء رجل إلى عمر بن الخطاب يشكو إليه عقوق ابنه، فأحضر عمر الولد وعنفه على عقوقه لأبيه، وأنّبه على تمرده عليه، ونسيانه لحقوقه فقال الولد: ("يا أمير المؤمنين أليس للولد حقوق على ابيه؟"، قال: "بلى"، قال: "فما هي يا امير المؤمنين؟" قال عمر: "ان ينتقي امه، ويحسن اسمه، ويعلمه الكتاب -القرآن-"، قال الولد: "يا امير المؤمنين، ان ابي لم يفعل شيئا من ذلك، اما امي فانها زنجية كانت لمجوسي، وقد سماني "جُعَلا" أي: "خنفساء"، ولم يعلمني من الكتاب حرفا واحدا..!"، فالتفت عمر الى الاب وقال له: "جئت اليَّ تشكو عقوق ابنك وقد عققته قبل ان يعقك، واسأت اليه قبل ان يسيء اليك..؟! قم عني").

في زماننا تجلى مفهوم عقوق الآباء للأبناء -لا العكس- والإساءة إليهم، وتبشيعهم حرفيّاً، وتدميرهم نفسيًّا، وهذا ما يُصعِّبُ عليهم عبادة البرّ بعد ذلك.

أثناء انفضاض الإشتباك الإستفهامي على أرض عقلي، ورفع الراية البيضاء، كان الليل قد ألقى سِرباله، فعدت أدراجي الى المنزل، وأثناء بلوغي رصيف بيتنا كانت أصواتهم تتعالى، وضحكاتهم تتدحرج، والدي يفيض بالحركة والحيوية مع اخوتي، وينحني كإبريق الشاي ليصعدوا فوقه، ثم يعدل نفسه لينبطحوا في حجره.

كنت أرى اخوتي يتحلقون حول والدي في مندوحة تجاوز دوره فيها من والد الى طفل، وكنت أمر من جانبهم وكأني نطفة عابرة قاعها الزمن.

دخلت غرفتي وقد اصطفقت أصواتهم في رأسي حتى كاد أن ينفجر، غمست نفسي بين مخطوطات القصص والروايات كي أنسى، ثم فتحت هاتفي، ورحت أتصفح مواقع التواصل الاجتماعي لأمر على هذه القصة، يقول أحد الآباء:

(أنا أب لشابين أكبرهم ٢٨ سنة وأصغرهم ٢٥ سنة، بعدما أنجبت زوجتي إبني الكبير أحمد فرحت به كثيرا وكنت لا أستطيع مفارقته، وأحيانا أغضب زوجتي من أجله لأن قلبي أصبح ملكا له، فحبه امتلكني.

مرت الأيام والشهور والسنين وأنجبت زوجتي إبني الثاني، والذي أسميته محمد.

لكن حب أحمد كان أقوى وأكبر، ولم أستطع أن أحب ابني الثاني -أحمد- حتي انني لم أستطع حمل ابني الصغير، وعندما كنت أخرج للتنزه أذهب برفقة إبني الكبير وأترك إبني الصغير مع زوجتي.

لقد كانت زوجتي تحبهما بالتساوي، وكنت أظن أنها مخطئة، لأن إبني الصغير كان شقي جدا ولايطاق، وإبني الكبير كان هادئ.

لا أتذكر أنني جلست مع ابني الصغير، أو لاعبته، أو أخذته للمدرسة، حتى في مرضه لا آخذه إلى الطبيب.

المهم.. كبر الولدان، وأصبح إبني الكبير محاسبا، أما إبني الصغير فدخل لأحد المعاهد، لكن بالنسبة لي فإنه فاشل لا محالة.

في أحد الأيام تشاجر الولدان، ورفع إبني الصغير يده على أخيه، في تلك اللحظة ثار غضبي وبرزت عروقي، وتصبب العرق من وجهي، فقمت بضرب إبني الصغير، وطردته من المنزل، رغم أن زوجتي طلبت مني أن أسامحه، وأتركه يعود للبيت، لكن أنا رفضت مع ترديد وابل من في حقه.

بعدما قمت بطرد إبني الصغير، ذهب للعيش عند والداي، فدرس العلوم الشرعية وحفظ القرآن، لم أسأل عنه طوال تلك المدة، فقط ما يردده والداي عندما يزوراني، حتى أنا لم أكن أرغب في رؤيته.

بعد فترة تزوج إبني الكبير بامرأة من مستوى راقي، لكنها لا تصلح للزواج، تعبت زوجتي بسببي، لأنني منعتها من زيارة إبنها الصغير، حتى أنها لم تعد تستطع المشي، فذهبت لإبني الكبير لأشكو له همي، فرد علي أنها ليست مضطرة لخدمتك وأنه لا يملك الوقت لزيارتها.

بعد الساعة ١ صباحا شعرت بضيق في صدري، فخرجت من المنزل متوجها إلى المسجد، وصليت حتى أقاموا الفجر، لكن في تلك الصلاة أحسست براحة نفسية، وأول مرة أشعر بخشوع تام، وهذا بسبب القارئ الذي يملك صوتا جميلا جدا.

بعد الانتهاء من الصلاة جلست أبكي حتى تقدم المقرئ الذي صلى بنا، كان شابا وسيما ملتحي ناصع البياض فقام بعناقي.

إستغربت من الموقف، وعانقته أنا أيضا، حتى همس في أذني قائلا: "إشتقت إليك يا والدي!"، ثم قال لي: "أنا محمد إبنك الصغير ألم تتعرف علي؟!".

أخذني بصحبته إلى بيت والداي، وكنت لا أزورهما، أنتظر منهما زيارتي فقط، وجدت أمي نائمة، وأبي مريض، وإبني هو من يرعاهما.

وجدت منزل والداي قد تغير كثيرا، وأصبح لدى أبي طابق ثاني.

نمت تلك الليلة في منزل والداي، وفي الصباح أتت فتاة جميلة توقظني، قالت لي: "لقد أنرت منزلنا يا عمي!"، فسألتها: "من أنت؟"، فأجابتني: "أنا زوجة ابنك محمدا!".

بعدما استيقظت، وجدت زوجة إبني قد قامت بتحميم أمي، وغيرت لها ملابسها، كما وأعدت فطور الصباح للكل.

إندهشت من حسن خلقها واحترامها، أردت ضرب نفسي، وتسائلت: "كيف يُعقل أن أترك إبنا مثل هذا؟!".

بعد لحظات ناداني والدي قائلا: "تعال يا إبني، أريد معانقتك قبل أن أموت"، كنت أعتقد أن أبي غاضب مني، لكن أبي شكرني، فقلت: "لماذا تشكرني يا أبي؟".

فأجاب: "إبنك محمد قال لي بأنك أنت من أرسله ليعتني بنا، وشكرا على الأموال التي كنت ترسلها لنا".

اندهشت!! أنا طردت محمد من المنزل! ولم أرسل أموالا لوالدي! ثم دخل إبني حاملا معه أكياسا من الخضار والطعام، وقام بإعطائها لزوجته، وقال لها: "أريد منك أن تطهي أحسن الطعام لأبي".

كنت أضحك وأبكي بذات الوقت، وقلت له: "أمك ستموت من أجلك"، فقال لي: "سوف نذهب لجلبها".

أخذت إبني إلى الخارج، وقصصت له كل شييء، وتفاجأت بأنه على علم بكل ما حدث، فقال لي: "إجلب كل ما تحتاجه، وتعال أنت وأمي لكي نعيش معاً".

فوافقت على الفور، وبعدما وصلنا للمنزل، وفتحت الباب، ودخل المنزل، فإذا بزوجتي تطير من الفرحة، وأسرع هو لمعانقة أمه التي قد حرمته من رؤيتها.

الآن أعيش أنا وزوجتي مع والداي وإبني محمد وزوجته الحامل، وكانت هذه أسعد لحظاتي) .. انتهت القصة.

تأوّهت طويلاً، ثم أغلقت هاتفي، وقلت في نفسي بحسرة: "لقد أحدث والدي في هيكي عِواراً لا يمكن ترميمه، يريد قلبي أن أكون بارّاً به، لكن عقلي يأبى ذلك، لأنه أشعل حريقاً أحاط بكل أبوابي وشبابيكي، وأرى جسدي يحترق بنيرانه التي لا تنطفئ".

في غضون ذلك دخل إلى قلبي ترح بعيد القعر، فقمت أطوف بغرفتي، حتى سمعت

صوتاً يناديني: "يا نعمان.. لا تحزن.. أنا الى جانبك"، خفت قليلا، وابتدأت التحليلات تتعارك في رأسي، فنفضته وقلت: "لعلّ هوسي بأفلام الرعب جعلني أختلق هذا الصوت".

رميت نفسي فوق السرير وأنا أقول: "أنا لست عاقّاً، ولا أنتوي أن أكون كذلك! لكن لماذا يصر والدي على إعدامي في كل يوم؟! أشعر أحياناً أني لست ابنه.. أشعر أني نطفة حرام!!"

الفصل الثالث

"ثلاثي ماكدونالد"

كنت أكره المدرسة، ولكني كنت ألتزم موادها، بُغضي لمدرستي كان لعلّة استهزاء المعلمين والزملاء بعملقتي الممتدة نحو السحاب، وببطني المنفوخ والمتدلي، والذي يشبه بطن الحبلى المتمدّد الذي تظهر في التشققات لحجمه وكبره.

إن المسافة التي تسلكها الشقوق في مرابع جسدي يرصدها الجميع، باستثناء مدرس الأحياء، والذي كان يعاملني بطريقة لطيفة من باب الشفقة، وهذا كان سبباً بسيطاً في تشييد رابطة بين حبي للخروج الى الطبيعة ومادّة الأحياء، ولذلك تعلقت بحصتّها، وكنت أنتظر ساعتها بفارغ الصبر، لأنني كنت أشعر بطبيعتي داخل صفحات مادة الأحياء، مما جعلني أقوم بادّخار معظم مصروفي لشراء منظار.

ولشدة تمايل الألسن حولي، ولتباذل الحديث عن لبسي للملاءات المفتوحة رغما عني من الأسفل و الّتي تُظهر فتنة كرشي، انزويت شيئاً فشيئاً حتى هجرت العلائقية بكل أذرعها.

لاحقاً اتخذت قبو منزلنا معبدا لي، وكان ذلك لسبب، وهو تقويض والدي لمنتدح انسانيتي في قلب المنزل، ثم اتخذت بعدها الطبيعة ملاذي لاصطياد الحيوانات وجرها الى قبوي، ثم تشريحها وتفحصها بالمنظار وتدوين ملاحظاتي.

كنت أنفّس عن ثناياي المسكونة بالهواجس، وأُفرغ عن طناياي المزدحمة بالوساوس في تشريح الحيوانات، إلى أن حدث ما حدث..

الى أن أصبت بفعل سلخ جلودهم، وشق صدورهم، وفتح أدمغتهم بالسادية ضد الحيوانات "Zoosadism"، فصرت أتلذّذ بمُمارسة القسوة وأشكال التعذيب حيالهم.

احدى المرات اصطدت أرنباً، وفي خلدي تخيلت أنه زميله "وائل"، والذي اختلق كذباً على لساني حكاية في المدرسة ليس لي أي يد فيها من الأساس، ولكنه نسبها الي ظلماً.

حيث قذف وائل طبشورة على رأس المدرس اثناء حصة الرياضيات، فاشتاط المدرس غضباً، ودار نحو الطلاب، وسأل بهياج: "مين الحيوان اللي رمى الطبشورة على راسي؟"، فأشار وائل نحوي، لينهال المدرس علي بالضرب دون أن يتحقق من ذلك.. فأخذت بتعذيب الأرنب لا إراديّاً، نتفت شعرهُ، وسلخت جلدهُ وهو على قيد الحياة.

وما ان مات الأرنب حتى شعرت بلذة ونشوة لا يمكن توصيفها، وكأن هناك مشاحة سيكولوجية تريد أن تخرج مني.

ومن لحظتها باشرت بالتحرك في ندحتي بكل مرونة وبكامل حريتي، وكنت أواظب النزوح الى الطبيعة وكأنها ساحة مُنداحة تفتح أذرعها لاستقبالي وتقديم قرابينها لي.

تارة قمت باصطياد قطة، وأثناء كمشي بذيلها قفز الى مخيالي أنها حبيبتي -سوار- كانت بسّامة، ولها وجه ملائكي أقربُ إلى الدائري، شقراء البشرة، فكّها مستدير وزواياه ناعمة، وليس حادًا أو مربعًا، كانت عيناها زرقاوتان، لوزيّتين، واسعتين جهة المُؤق، بعيدتين عن الأنف كالحورالعين، وكانت جبهتها واسعة فو ق عينيها، وكأنها ساحة يتبارز على متنها المحبين، وكان شعرها أثيث كفتؤ النخلة المتعثكل.

كان صوتها أغن، وكلامها أرقّ من نسمات السحر التي تهُب على أفواف النرجس والزهر، ولكنه تبدل الى هدير مطر اخترم روحي، وكلامها استحال الى رنين رعد ثقب اذني أثناء إعترافي لها بحبي.

لمزتني، وقالت لي بسخرية: "هاي آخرتها! سوار تحب موسكولوس! انقطع الشباب من الحارة! أنا مرضيتش في اللي أحلى وأغنى منك تا أرضى فيك!"، ثم تقهقهت وأزاحت بوجهها عني، وتركت المكان.

غرقتُ حينها في الهم والغم، وبدوت كما البائس المشرّد الذي يتخبط هنا وهناك ويحدث نفسه: "ما الذي فعلته حتى تأتيني هذه الطعنة من سوار؟!"، شردت طويلاً في استعادة المشهد والذي لم تتعطّف علي فيه باختيار ألفاظها، ثم تذكرت أني موسكولوس الدميم، والبدين، والقبيح.

جمّعت أقدام القطة حول بعضهم، ثم جعلت أعقدهم بحبل مرة ومرة وأخرى، ثم علّقت القطة من ساقيها في غصن شجرة كبيرة، ورحت أقذفها بأحجار صغيرة بواسطة مقلاعي، حتى خزوقتها وماتت.

اقتربت منها، ثم فككت وثاقها، وحضنتها، ورحت أبكي وأقبلها في كل مكان، خرجت كلماتي من بين دموعي: "ما كان يبنغي أن ينتهي بنا الحال هكذا يا سوار.. ولكن هذا هو الأفضل لي ولك".

غرقت في نشيجي، وجثوت على ركبتي، ساعات من البكاء حتى هدأت، كان المساء قد زحف نحو منزلنا، قرأت الفاتحة على روح القطة، ثم وقفت على قدمي وتحركت مسرعاً الى قبوي.

حينما وصلت، حنيتُ جذعي إلى الأمام، واتّكأتُ على باطن كفّي فوق رُكبتي اليسرى، وأنغصت رأسي هامساً: "لا تحزن.. لقد حصدت سوار شر استعلائها، ولقد تخلصت أنت من احدى كوابيسك".

انسدحت بعدها على سريري وعيناي غائمتين، مُنهكتين، وأنا أكرر قولي: "لقد تخلصت من احدى كوابيسك.. لقد تخلصت من احدى كوابيسك.. لقد تخلصت من احدى كوابيسك"، حتى بدت عيناي كذُبالة مِصباح يوُشِك أن يطفأ، الى أن انطفأ ودخلت في سبات عميق.

أفقت في الصباح كالمخبوط على رأسه، طرت إلى المدرسة كي لا أتأخر عن موعد الحصة الأولى، فقد كانت مادة الأحياء التي أحبها، وأثناء انطلاقي كانت آلاف الأفكار تتعارك في عقلي الى أن وصلت، فتحت الدفة اليمنى لباب المدرسة الرئيسي أثناء ما كان الزملاء يتلاقون بالسلام والتحايا والسؤال عن أحوالهم، وعندما دخلت كانت سوار تتوسطهم.

سمعت أصواتهم تهزأ بي من بعيد ريثما شاهدوني، شققت جموعهم وعندما مررت من جانب سوار راحت عيناها اللئيمتين تغوصان فِيّ، وتنتهكان ساحات دِفاعي، ولكني ولأول مرة لم أكترث لهذه القطة العضّاضة والخدّاشة، فقد رجمتها وقتلتها البارحة.

زملائي كانوا يعلكون فيّ كعادتهم، واستمعت الى أراجيفهم التي كانت تنال مني من كل حدب وصوب.

جرحي يزداد غوره، ويضغط عليه زملائي عامدين، وتفرك سوار فيه دون رحمة، حتى خنقوا روح الطفولة في أركاني وقتلوها.

مضت ساعات المدرسة المقيتة، وعدت أدراجي للمنزل، وأثناء عودتي كان الهواء سقيماً، وكانت نفسي تحدثني، فأطرقت أصغي إليها، فوشوشتني أني بحاجة إلى خلوة بعيدة.

قادتني قدماي إلى الطبيعة، فهي متنفسي الوحيد، فعثرت قدماي في شيء مستدير أشبه بكرة صلبة، انكفأت على وجهي، فانكسرت سني، سال الدم من فمي واختلط مع التراب.

جلست وقضيتُ أمسح الدماء عن وجهي، وأُزيل الغبرة والقترة عنه، ثم وقفت وأصلحت هندامي.

وما أن انهيت حتى سرت بخطوات بطيئة وبحذر شديد نحو هذا الشيء الذي أسقطني، مددت عنقي وأنا في غمرة انشِداهي محاولا معاينته، وإذا بها سلحفاة بريّة!

أخذت نفسا طويلاً، وأطلق زفرة عميقة، وراح الخوف عنّي، هززت رأسي ثم تأوّهت: "سلحفاة.. هذا ما كان ينقصني!".

لا أعلم لماذا تهيأ لي في حِمام ذلك أنها شقيقتي التي تكبرني سنّاً، والتي مدّت بقدمها وأسقطتني أرضاً قبل أن أهرب الى القبو، وكأنّ المشهد يقفز الى رأسي مرة أخرى، ولا زلت أذكر فمها المستظرف حينما أسقطتني: "شكلك بضحك وانت بتدحل زي عجل الترك".

تقلقل الغضب في كل خلية بجسدي، وقبضت هذه السحفاة بكفي العملاقة، ثم أسرعت بها الى وسط المدينة، حيث الأبنية الشاهقة والعمارات والأبراج، وصعدت الى برج كبير يضم أربعين طابقاً، يشبه برج بلغراد في صربيا في العلو تقريبا، ثم قذفت بها من على سطح البرج، ورحت أرقبها بالمنظار، وكان المشهد ممتعاً.

ما إن وصلت هذه السلحفاة الأرض حتى انفجرت وتشظّت الى أشلاء، كل قطعة دبّت في مكان، وأثناء ذلك تقهقر الغضب في كل خلية بجسدي، وتمخّض الحرية.

جلست فوق البرج بضع ساعات، أقمت خلالها جنازة للسلحفاة في رأسي، وبعد تشييعها رأيت روح شقيقتي تحوم فوق السحاب، وما ان اختفت عن ناظري حتى استيقظت سنواتي عمري الأولى، والتي كانت تتفتّقُ فيها أوجادي وينثر فيها الألم ثيابه على كل أركاني.

لم أستطع التمييز حينها، فكانت الأشياء تتداخل ببعضها حتى اختلط عليها التمييز، ولم أكن اعرف تراتبيّة القدر لي، فنفضت رأسي من كل ما يدور فيه، وهممت لأغادر المكان.

هبطت من أعلى البرج لأجد الشرطي بانتظاري في الأسفل، كانت شرطة الحيوانات، أو ما يعرف بـ "خدمات مراقبة الحيوانات" أو "ضباط مراقبة الحيوانات"، وهي جهات مسؤولة عن الاستجابة لطلبات المساعدة المتعلقة بالحيوانات، سواء كانت حيوانات أليفة، أو حيوانات برية، أو حيوانات ضالة، أو حيوانات مهددة بالخطر، أو تعرضت له.

وهذه الجهات تتلقى البلاغات والشكاوي عن حالات إساءة معاملة الحيوانات، أو إهمالها، أو الحوادث التي تتضمن حيوانات، وتعمل على معالجة هذه الحالات، وعلى ما يبدوا أن أحد المارين قام بإبلاغه بشأن السلحفاة المرحومة!

ما ان نظر الي الشرطي حتى هزّ رأسه دون أن يتكلم، ثم نظر إلى القعر نحو

حذائه، ثم رفع بصرهُ نحوي وقال بتأفّف: "ولد!! تبا لكم ولمشاكساتكم"، أقلّني بمركبته، وعند وصولنا للمغفر، تم الابلاغ بالحادثة.

في قانون العقوبات فإنه يمكن الحكم بالسجن لمن يؤذي الحيوان، خاصةً إذا كان الإيذاء عنيفًا أو متعمدًا، وذلك في العديد من البلدان، وخاصة في بلدي، هناك قوانين لحماية الحيوانات من الإيذاء والإهمال، وقد تتضمن هذه القوانين عقوبات بالسجن أو الغرامة أو كليهما.

مثلا، في الأوروجواي السجن لمدة عامين لمن يقتل حيوانًا أليفًا، وغرامات تصل إلى ٦٨٨٠٠ بيزو على التجاوزات، وفي سويسرا وفرنسا يُعاقب على سوء المعاملة القاسية والمتعمدة للحيوانات بعقوبات تصل إلى ثلاث سنوات، وغرامات تصل إلى ٢٠ ألف فرنك سويسري، و 30 ألف يورو، وفي أستراليا يعاقب على التخلي عن الحيوانات الأليفة بعقوبات تصل إلى خمس سنوات في السجن، وغرامة قدرها ١٠٠٠٠٠ دولار، وفى المكسيك والبرازيل والبيرو السجن ٥ سنوات لمن يسيئ التعامل مع الحيوانات، وفي الولايات المتحدة الحبس ٧ سنوات لمن يعذب الحيوانات، وفي بريطانيا وانجلترا السجن على مرتكبي أعمال عنف ضد الحيوانات خمسة أعوام بالاضافة الى غرامات مالية، وفي كولومبيا تصل الغرامات المفروضة على أعمال القسوة والعنف ضد الحيوانات إلى ٦٠ مرة قيمة المرتب للأجور الشهرية، وتتراوح أحكام السجن من ١٢ إلى ٣٦ شهرًا.

وأنا قمت بقتل حيوان أليف، ولكن في حالتي ولأني قاصر ولم أكمل ال ١٣ ربيعاً، تم احتجازي في سجن خاص للأحداث، والذي يكون معدّاً للقاصرين، وعند استجوابي لم أنطق بكلمة واحدة.

تم توقيفي لمدة ١٢ ساعة، كنت أنتظر خلالها حضنا طال انتظاره، وتلوعاً لرشفة حنان منه، الى أن تلقى القسم اتصالا من أحدهم يبحث عن ابنه، وعندما تم توصيفي له، تبين أنه أبي.

طلبت الشرطة من والدي الحضور الى المركز، وعندما وصل جاؤوا به الى زنزانتي للتعرف علي، وحينما رآني جلدني بنظراته، وقال لمأمور السجن بصوت غليظ: "نعم.. انه موسكولوس"، فرد المأمور بتعجب: "من؟! موسكولوس؟!"، فرد والدي بتخبط: "أقصد.. إنه ولدي نعمان.. انه مشاكس".

مضى المأمور بوالدي نحو مكتب مدير المركز، وما أن رآه المدير حتى وقف على قدميه، وهش، وبش، وفتح ذراعيه قائلا: "مهند!!"، فرد والدي: "من؟؟ منصور!".

وتعالقى بالأحضان، تبيّن أن هناك علاقة وثيقة بين أبي ومنصور -مدير مركز الشرطة- حيث كانوا زملاء في المرحلة الابتدائية.

كان والدي لطيف الصوت، حلو الشمائل، رخيم النغمة، موزون الحركة، لذيذ المُفاكهة مع غيري، أما معي فقد كان اعصاراً يلوّح نحوي بالموت كل يوم.

استرجع أبي ذكرياته مع منصور، وتبادلوا أحوالهم، وتناولوا أطراف الحديث معاً، ثم في ختام جلستهم تطرق أبي للسؤال عني، فقال له منصور: "لا أعلم من أين أبدأ، ولكن أعتقد أن ابنك نعمان بحاجة الى تلقي خدمات نفسية، أرى أنه بحاجة ماسّة الى عناية نفسية، هلّا عرضته على طبيب نفسي؟".

أجاب والدي وكان التوتر يحبو على مُحيّاه: "بلى.. ولكن ماذا صنع؟"، فرد منصور: "ألقى بسلحفاة من علو أربعين طابق! وانبجست! وتناثرت الى قطع صغيرة!".

بلع والدي ريقه وقال: "معقول!!".

منصور: "نعم.. وهناك مواطن بلّغ عنه".

والدي: "لا حول ولا قوة الا بالله".

منصور: "ألا تعلم لماذا فعل ذلك بالسلحفاة يا مهند؟".

هزّ والدي رأسه بالنفي وقال: "لا أدري صدقاً مأتى هذا الصّنع يا منصور؟!".

منصور وعينيه جاحظتين: "لقد جلسنا مع نعمان لقرابة العشرة ساعات كي يتحدث، ولكنه التزم الصمت!".

والدي بصوت مرتبك: "نعمان ساكن وهادئ بطبعه".

منصور متعجباً: "ولكن هذا لا يمنعه من الحديث.. أليس كذلك".

والدي بنغمة متحيرة: "بلى.. سأحاول فهم تداعيات ذلك".

ضيّق منصور عينيه، وفتل شاربيه، وقال بضرامة: "أنت تعلم يا مهند أن عقوبة قتل حيوان في بلدنا تصل الى خمسة سنوات، بالإضافة إلى دفع غرامة مالية تصل الى ٥٠ ألف دولار؟".

شرب والدي ريقه، وأجاب بصوت مهموم: "أعلم ذلك جيداً منصور".

أنغض منصور رأسه، ثم وقف على قدميه، واقترب من والدي، وأمسِك بذراعِيه،

وضغط عليهما قليلاً، وهمس يقول: "لا تقلق.. سأوصي الجهات المختصة بالرفق بالحكم، والاكتفاء بدفع نصف الغرامة المالية"

اختلج صوت والدي الخارج من فمه: "وكم قيمة الغرامة؟".

منصور: "إنها ٢٥ ألف دولار.. ولا أستطيع أن أتهاون معك يا مهند في هذه المسألة أكثر من ذلك، فأنت تعلم جيدا أنه سحق السلحفاة وحولها الى شظايا".

والدي بعين باهتة وصوت نحيل: "شكراً منصور".

ربت منصور على كتف والدي وقال: "ولكن.. عليك يا مهند أن تعرضهُ بأسرع وقت ممكن على طبيب نفسي لكي يُعاين حالته العقلية والنفسيّة".

والدي: "إن شاء الله".

بعد أن دفع والدي الغرامة رحل مسرعاً، كنت أركض خلفهُ، وما أن وصلنا الى الشارع حتى ركب الطريق متوجهاً الى المنزل.

كان عابساً وظل واجماً طيلة الطريق، ولم أدري ماذا يجول في داخله، وكم من قصّاب أو جلاّد أو جزّار يراودونه عن نفسه من أجل عقابي.

كان في هيئة بركانية حتى وصلنا، خطى بخطوات واسعة نحو باب المنزل، فلحقته، وناديته: "أريد أن أتحدث معك"، فلم يلتفت إلي، فتابعت اللحاق به، وأردت أن أوقفه هذه المرة، فأزاحني بغضب عن طريقه، ومضى نحو باب المنزل، وفتحه، ثم دخل مسرعاً.

دخلت خلفه مباشرة، وصحت: "هيه.. أبي.. توقف.. أريد أن أتحدث معك"، ولكنه كان يشتعل غضباً، ولم يلتفت إلي إطلاقاً، ولكني صرخت رغم ذلك وقلت له: "إن الطفل يولد كتلة من الغرث لتحسس كل ما هو على صحن الطبيعة، ثم يأتي والده لقتل هذا الغرث، ولكن مالا يعلمه والده أنه قام بقتل طفله".

توقف والدي هنيّة حينها، ودار برأسه، وأرسل نظرة رخوة نحوي، وكأن الرب هو الذي ينظر إليّ وقال: "ماذا تقصد أيها الفيلسوف موسكولوس؟ أتريد ان تعلمني درساً في الأخلاق وقد قتلت سلحفاة قبل قليل! وقذفت بها من فوق أربعين طابق بلا شفقة ولا رحمة! ماذا تقصد أيها التافه؟!".

فقلت له وعيناي تشع غضباً: "أعتذر لنيافتك.. ولكن قبلة واحدة منك كانت كفيلة بأن تنقذ حياتي!!"، وهبطت السلالم نحو القبو.

نزلت إلى قبوي، كان يومي عصيباً، راودت النّوم عن نفسه، فلم يبذل لي مُبتغاي، تقلّبتُ كثيرًا، وحاولت أن استجلبه بطرق شتّى، و لكنّه لم يأتِ، لم أنم، وظلّ وجه أبي يخطر ببالي، وأتسائل: "لماذا يكرهني؟".

بقيتُ منسدحاً على تختي حتّى هبط اللّيل، أتحدث مع نفسي: "حسناً.. لا مانع من مشاهدة احدى الافلام، لعلّ وجه أبي الذي يتردّى لي في كل مكان أن يختفي".

أشعلت التفاز، وأخذت أقلّب في المحطات الفضائية حتى ظهر لي فيلم اسمه "الجوكر Joker" وهو فيلم إثارة نفسية أمريكي صدر سنة ٢٠١٩م من إخراج وإنتاج تود فيلبيس، والذي قام بآداء دور الجوكر هو الممثل المشهور "خواكين فينيكس".

جعلت أتابع الفيلم، والذي يتحدث عن تجسيد للمأساة الإنسانية في شخصية الجوكر، والذي هو في الحقيقة "أرثر فليك"، ولكنه كاني يعاني من عقدة نفسية جعلت منه في النهاية أن يتحول الى شخصية الجوكر.

سافر بي الفيلم الى قصة الجوكر الإنسان البسيط، والذي بلغت منه القساوة مبلغاً شديداً على يد القريب والبعيد، في عالم جليدي تجمدت فيه كل معاني الإنسانية، احتاج فيه للرحمة وللحب وللإنسانية، ولكنه لم يجد ذلك.

قساوة الناس بحقه كانت مفرطة، والمشاعر جافّة، فشرع الجميع بالسخرية منه، والإستهزاء به، وضربه وسحته، حتى أصيب بعقدة نفسية ومرض نفسي.

والذي زاد من أزمته النفسية عندما أخبرته أمه بأن أباه الحقيقي هو "بيني فيلك"، فكانت صدمة عميقة وجدانياً شكلت نقطة تحول ارثر، بأن أباه ليس والده، مما أدى لاحقا الى انشطار ذاته وهدمها، فتحوّل من آرثر الى الجوكر، الى شخصيّة انتقامية من المجمتع البشري بأكمله.

عند انتهاء الفيلم، تكشفت لي حقائق مهمة، وهو أن المجتمع سواء العائلة أو الزملاء أو الأقارب أو الأصحاب أو الأغراب هم من يخلقون المأساة، وهم السبب في اندلاع الشر وانتشار الجرائم، هم السبب الرئيس في ظلم الإنسان وقهره وبؤسه وهدمه.

إن الهدف المباشر من الفيلم جليّ، وهو عبارة عن رسالة منثورة بماء الحزن والألم تقول: "ان السواد يغطي كوكب الأرض، والإنسان بحاجة الى الرحمة والحب، بدلا من الكره والقسوة والتخفيض التي تغطي أنحاء وأرجاء عالمنا".

قرّرت أن أطوي جوانحي على كل ألم مضى، لكي لا ينوبني ما ناب الجوكر، كان المساء يُعلن انزياحه، فتوجّهت الى المطبخ، وأخرجت ما في الثلاجة من طعام كي أعدّ الفطور لأبي وأخوتي، أردت أن أفاجئهم، وأن نبدأ صفحة جديدة كقصيدةٌ أزليةٌ تتغنى بالحب والأمل.

وضعت الصحون على الطاولة، وكانت رائحة الفطور شهية.

بدأ أخوتي بالحضور واحد تلو الآخر، عندما شاهدوني كان في أفواههم كلام كثير لا يرديون البوح به، فبعض البوح جميل وفي بعضه الآخر قبيح، وظل السكوت يخيّم حول الطاولة حتى حضر والدي.

فسأل وكانت الكشرة تعتلي وجهه عندما رآني أجلس حول المائدة الى جانب أخوتي وأخواتي: "من الذي أعد الفطور؟ هل هي حبيبتي وصغيرتي تالا، أم انها المشاكسة الكبيرة مها؟".

فأشارت تالا بأصبعها نحوي، فقلت بدوري وكانت الكلمات تنساب كأنهارٍ من نورٍ وضياء: "صباح الخير بابا.. صباح الخير يا حبيبيني.. يارب يعجبكم الفطور.. أنا مبسوط انو بدنا نفطر كلنا مع بعض".

تلّون وجه أبي، وشعرت وكأن هناك بحر من الكلام سيتفجر من بين فكيه: "وإلك عين تحكي كمان.. بكفيش المصيبة اللي عملتها مبارح!".

فسألته أختي تالا: "ايش عمل يا بابا؟"، فأجابها والدي بتهكّم: "قتل سلحفاة.. رماها من فوق أربعين طابق.. وسوّد وجهي قُدام صاحبي في الشرطة.. ودفّعني ٢٥ ألف دولار.. وأنا مش طايق أشوف وجهو.. ولو شو ما عِمل أنا مش طايقه.. وخلّي ينصرف من وجهي أحسنلو".

ضحكت أعين أخوتي عندما علموا بنبأ قتلي للسلحفاة، وانطلقت عواصفهم تتوالى لمحاولة طمس كل جهد أقوم به لخلق بيئة عائلية تجمعنا، حتى أن مها مضغت محاولتي هذه بقولها: "لو كنت مكانكِ لحفظتُ ماء وجهي وخرجتُ بلا عودة، أو بقيت حبيس القبو مدى الدهر".

جاءني صوت واهن من الدّاخل يخبرني: "كلّما خرجت من لعنة، دخلت في لعنة أكبر منها! متى تتخلص من لعنة أبيك؟! وكلما عوفيت من طعنات اخوتك، نفذت طعنات جديدة منهم الى قلبك؟ وكلما حاولت الإقتراب من هذه العائلة الباردة خطوة أبعدوك ألف ألف ميل؟!".

ضرب الطاولة بيدي ضربة ثقبت أفئدة الجميع، ثم ادمت النظر في وجه أبي، قلت له بنبرة صوت لاذعة وكأن "كريتوس- إله الحرب" يتحدث الى ولده "أتريوس" في الجزء الرابع من لعبة "God of war": (إنك تعمّق الوصمة، بدلا من أن تمد جسور الفهم والإحتواء، يجب عليك أن تكون وطنا لإبنك الذي يبحث عن حضن فيه، ألم تطالع قصة الطفل الذي أضاء العالم؟! عندما كان توماس أديسون طفلاً صغيراً، عاد إلى المنزل من المدرسة وأعطى والدته مذكرة كلَّفه أحد الأساتذة بتسليمها إلى ولي أمره، قرأتها والدته -نانسي إليوت- وأمام نظرات ولدها المترقبة لمحتوى المذكرة، اغرورقت عيناها بالدموع وهي تقرأ الرسالة بصوت عالٍ لطفلها: "ابنك عبقري.. هذه المدرسة متواضعة جدًا بالنسبة له، وليس لديها معلمين جيدين بما يكفي لتعليمه، من فضلك، علِّميه في المنزل"، عانقت نانسي -والدة توماس أديسون- ولدها وأخبرته ألّا يقلق، وأنها مِن تلك اللحظة ستهتم بتعليمه بنفسها، وهذا بالضبط ما حدث؛ بعد سنوات من وفاة والدته، اخترع توماس أديسون المصباح، وأصبح أحد أعظم المخترعين وأكثرهم شهرة في العالم! وفي أحد الأيام وعندما كان يمر بخزانته القديمة، وجد الرسالة المطوية من معلمه، فتحها، ووجد الرسالة الحقيقية التي قرأتها والدته، ولكن كان قد كُتب فيها:

"ابنك متخلف عقلياً، لا يمكننا السماح له بالذهاب إلى مدرستنا بعد الآن"، فبكى توماس أديسون، وكتب في مذكراته: "كان توماس أديسون طفلًا يعاني من نقص عقلي، فحولته والدته إلى عبقري") هكذا يحتوي الوالدين أولادهم، ليس كما تصنع أنت!!".

احمر وجه والدي بعد سماع القصة، وكاد أن ينفجر، صمت كما تلك الجثة في قبرها، ثم أرسل عينيه في جذعي، رفع سبابته وشدّ على أسنانه وقال: "بتتفلسف علي يا كلب! هاي آخرتها! موسكولوس بتفلسف علي يا ولاد وبعطيني محاضرة! انطم أحسنلك".

هبطت هذه الكلمات على قلبي وكأنها مطرقة كبيرة فلقته، أجلْت النظر في ساق أبي، ثم قلت له بلسان مبين: "عليك اللعنة ما أحقرك من أب".

ما أن قذفت لعنتي في وجه والدي، حتى راح يشهق ويزفر كالثور الهائج، ثم اندفح نحوي كالتّيس، فشق قميصي عن صدري، وهوى عليّ بجمع كفّه، فأسقطني على الأرض.

نفضت رأسي وكان قطرات الدم تتناثر من فمي، تلمّست شفتي، كانتا مُغطّاتين بالدماء من شدّة صفعة أبي، رحت أبصق الدّم على هيئة دفقات، ثم وقفت على

طولي، مسحت وجهي بطرف كفي، وقلت له: "في كل مرة تضربني بها وأحوال منع نفسي عنك، توجه لي ضربة شديدة وأقسى من سابقاتها".

زعق في وجهي: "اخرس يا كلب.. لولا وجودي إلى جانبكِ لكنتِ في السجن الآن"، ثم همّ لكي يلتحم بي مرة اخرى، رفع يده ليضربني مرّة أخرى، ولكني قبضت كفّهُ، وغصت عميقًا في جسده الممتلئ، وضعت يدي على خصره، ثم أحكمت قبضتي في سَيْر بنطاله، ورفعته بيد واحدة كما يرفع الحانوتي "The Undertaker" خصومه في حلبة المصارعة، وقذفته كما يقذف لاعب البسيبول الكرة، فطار حتى ارتطم فوق منضدة الطعام، وسقط بين شقيها فاقداً وعيه.

اشتغلت صيحات اخوتي كصفارات الإنذار، يولولون، ويردحون، وينوحون، ويلطمون، وراحوا بافواههم الجائرة يسبونني بأبشع المسبات.

طوّحت رأسي في السقف، ومسكت فمي ازاء ردحهم ورميهم لي بأقذع النعوت.

إلتموا حول أبي، حاولوا ايقاظه، ولمّا أفاق هاله ما رأى من بأسي، وفاحت منه رائحة الخوف، ولكنه هم للإشتباك معي فمنعوه إخوتي، فصاح صيحة مضغوطة: "اطلع برة الدار يا كلب.. اطلع برّة"، تجرّعت مرارتي وتجهّزت للخروج وفي غضون ذلك جلدته بهذه العبارة الصارمة: "يقول المثل أيها الأب اللعين -وراء كل رجل عظيم امرأة- وراء كل رجل عظيم أم وليس أب! ولو كان بيدي أن أختار لاخترت أمي".

دخل الحزن الى قلبي عندما حامت أمي في ذاكرتي في هذا الصباح الفاشل، ثم تأوهت: "أمي.. أين هي يا ترى؟ كيف شكلها؟ وهل هي على قيد الحياة، أم أنها فارقتها؟ آآآآآآآه يا أمي وألف آه".

أدرت بجذعي وقد توقفت ذاكرتي عند أمي، وانطلق الفقيه على لساني: "لا يمكنك اغراق السمك وقتلها بالماء يا أبي!"، هممت بالمغادرة وأنا أوجه عبارتي لأختي مها: "لا تقلقي يا مها.. سأكون حبيس القبو مدى الحياة، ولن أزعجكم برؤية وجهي مرة أخرى".

هبطت الى القبو، تسطّحت على السرير، أردت أن أنام لكي أنسى ما حدث ، ولكنّ ذلككان ضربًا من المُستحيل.

تنهّدت طويلا وسرحتُ بعيدًا، شعرتُ أنّ الظّلام يُحيط بكلّ شيء حولي، كان وجه والدي كالشيطان يتردى لي في كل مكان.

أصبت بلوثة المأسوية والألم، ومرّت أشهر بطولها لم أدخل المنزل، ولم يحصل أن تحدّث مع أي من أبي وأخوتي لوقت بعيد، فقط كانت حياتي ما بين القبو والمدرسة، ومن المدرسة الى الطبيعة، وأحيانا كنت أغيب وأختفي كالجن في أماكن مظلمة، فقفد تعبت من مخاطبة البشر، فوجهت ندائي للشياطين لعلهم يسمعون لي أو يشعرون بي.

كنت أجوب الشوارع ليلاً، أستتر من أنظار كل الناس، وأنسل في أماكن مظلمة، كدير ثلما في تشيفالو، والتي أسسها الساحر والمشعوذ الشهير "أليستر كراولي"، كانت بمثابة مجتمع ديني ومدرسة روحية، أقام بها أنواع الحفلات السوداء والطقوس السحرية والدعارة وتقديم القرابين، حيث كان يقدم القرابين الحيّة كالقطط والكلاب، وقيل أنه قد اختفى طفل في سنة ١٩٢٣ وأشيع أنه قد اختطف من قرية قريبة وأن كراولي قد قدّمه كقربان، وكان يرى في نفسه أنه تجسيد للشيطان على الأرض، ويتفنن في اختيار الألقاب الشيطانية لنفسه ويجب أن يقوم بدوره في نشر الشر والرذيلة بين الأقطار المختلفة.

ولكن الفرق بيني وبين كراولي هو أن كراولي كان مع أتباعه يمارسون طقوسهم ومبادئهم المستوحاة من كتابه "كتاب القانون" في دير ثيلما، بينما أنا كنت أمارس طقوسي لوحدي، وأفتعل نوازلي دون علم أحد .

احدى الصباحات استيقظت فجراً، حيث كان لجارنا ديكاً كبيراً، وكان لا يمرقُ يوم إلا عبر صياحه المرتبطة بشروق الشمس وإعلان بداية يوم جديد، لكن بالنسبة لي كانت أيامي كلها تشبه بعضها، بل على العكس، كانت تمرّ عليّ ليال طِوال وأنا أتقلّب في فِراشي، ولا أستطيع النوم، وكلّما طلبتهُ كان وجه أبي يثب في مخيّلتي ولا يجعلني أغفو ولو للحظة.

كنت أحاول الهرب من وجهه اللعين، لا أريد أن أحدّق فيه، أو أن يتلفّظ لساني باسمه، ومع مرور الأيام أضحى سريري موطنًا خصبًا للخيالات المُرعِبة، فترتسم عليه مشاهد الخوف، وأشباح تطوف حوله، وتظهر بأرديتها السّوداء، وصوتها المرعب، وجنّ ذوات أنوف معقوفة، يسيل الدم من أشداقها، وان حدثت المعجزة وحانت الغفوة مني، كان يوقظني صياح ديك جارنا!

ولقد أيقظني في هذا الصباح اللعين، فقررت أن أتخلص منه ومن نعيقه، ولم أدري على وجه الدقة كيف سأفعل ذلك.

كانت الساعة الرابعة فجراً، وكان الجميع نيام، ولحسن الحظ أن جارنا كان يتوجه

الى المسجد كل يوم لأداء صلاة الصبح، ثم ينقطع بعض الوقت لتلاوة القران والإقبال على النصوص الدينية حتى شروق الشمس.

نهضت مُتثاقلاً، وانسللت من سريري، وفتحت باب القبو، وأنا أهتف بصوت خفيض: "صح كما تشاء أيها الديك.. فهذا آخر صباح لك".

كان سور جارنا ملاصقاً لسورنا، قفزت من قوقه، ورحت أراقب الديك خلسة، وأثناء اقترابي منه، وكأنه شعر بي، فلفّ برأسه نحوي وقال لي: "شو بدك؟ ليش ماشي وراي زي الحرامي؟"، فنفضت رأسي متعجباً: "مستحيل!! ديك بحكي؟ أنا مش مصدق! أكيد لإنو مكسور علي نوم تهيئلي انو هاذا الديك بحكي".

نظرت الى اليمين، ثم عاودت النظر الى الديك، فوجدته ما زال يحدق بي، ثم أردف يقول: "أنا بعرف شو سويت قبل أكمّن يوم.. بتفكرني ما بعرف؟! على العموم.. ما بصير انك تلوم غيرك أو تلوم القدر عشان تبرر مصاييك وجريمتك".

لم أصدق ما أسمعه، ولفّ السؤال حول رأسي: "ايش قصدك؟! لإيش بتلمّح؟!".

صدحت حنجة الديك: "انت عارف حالك شو سويت يا نعمان! بس أنا ما الي دخل، ومش راح أحكي لحدا".

أجبته بنصف فمي وأنا أخبئ عيني: "أنا ما بعرف لإيش بتلمح؟! بس انت ما الك دخل، وانت بتعرف بكل نقطة ببدنك انو الكل أذاني وتنمّر علي".

نظرت الى جهة اليسار، فلا أريد أن أسمع مزيدا من هذه الترهات التي تنسكب من فوهة رأسي، وبعد عدة دقائق رجعت بنظري نحو هذا الديك الواعظ، وأنا أحدث نفسي: "يبدوا أن جاري أطعمك على مدار سنوات طويلة من الوجبات الدينية ما يجعلك شيخاً وواعظاً مثله".

شعرت للحظة أنني سأقع فريسة بين منقار هذا الديك، حيث أشار لي به: "سيسكن الفراغ جسدك"، فهززت رأسي بالإمتعاض، فكم كان يشبه بأسلوبه استاذ الدين الى حد بعيد؟!

ولكم كنت أكرهه لأنه كان سبباً مباشرا في سقوطي في الثانوتوفوبيا "التاناتوفوبيا"، حيث أصبحت كل تحركاتي مربوطة بالموت، ولم أستطع السيطرة عليها.

حديثه كان لا يزال يقتل طمأنينتي شيئا فشيئا، وعن غير وعيي مني وثبت فوقه، أمسكت بحربتي وحززت بها عُنُقه، فراح دمه يشخبُ وينفرُ ويتدفّق، وأثناء تطايرها كانت نفسي تقول: "لماذا لا تحدثونا عن نعيم القبر؟ لماذا لا تحدثونا عن جميل اللقاء

بربنا؟ تبا لكم ولدروسكم".

عدت الى القبو وأنا أفكر بصوت عالٍ مع نفسي: "لا تخف.. ان البيانات والحقائق تموت مع موت صاحبها".

عند الشروق سمعت وقع أقدام جاري، والذي تبنّج عندما شاهدك ديكه مذبوحاً على عتبات منزله، حمله ودفنه، وراح يفتش عن الفاعل، ويسأل هنا وهناك، ولكن ما من جواب، فاتصل بضابط مراقبة الحيوانات، والذي اخذ بدوره في التقصي والبحث عن قاتل هذا الديك.

أما عني فقد تخلصت من أحد أوهاق الحياة التي أتعبتي، ولكن تعاظمت الهوّة بيني وبين نفسي، فما أصعب الخذلان، تماما كالخذلان بعد الثقة والذي جاء في مشهد جسدته الممثلة "أنجلينا جولي" بكل جوارحها في فيلم "Maleficent"، والتي وثقت برجل آدمي وأحبته، لكنه استغلها وقص جناحيها، مما جعلها تتحوّل من كائن طيب وعطوف الى كائن متجرد من الانسانية، مليئ بالشر.

لقد قصّ البشر جوانحي!!

لم يأبهوا بتشظي ذاتي وانشطار كينونتي في جوف قبو حكم عليّ بالسجن المؤبد في بطنه.

بعد مدّة هبط والدي الى القبو، وكان مشهد هبوطه كمشهد هبوط المسيح بروحه عند المنارة البيضاء اخر الزمان، وتسائلت: "هل هبط والدي اخيرا ليخمد أوام الإنتظار؟ ففي القبو انسان وليس حجر، في القبو حياة وليس موت!!".

كنت أتضور جوعاً لهذه اللحظة، وقفت امامه ولكن وجهه تقلّب ضجراً وهو يشتم رائحة عفنة ونتنة فائحة من زاوية القبو.

دنا أبي من منبع الرائحة، ليشاهد مسلخ حيوانات ينتظم حول الطاولة المنصوبة في زاوية القبو، اقترب أكثر ثم عمد حيث الطاولة، ليرى خنزيراً مبقور البطن فوقها تحت عدسة المنظار الخاصة بي.

أخذت نواظره تقدح شرراً، وصدره يعلو ويهبط، كنت أتخيل أني سأجمع صدري الى صدري والدي الفائر هذه الليلة، ولكن على ما يبدوا أن هناك عاصفة منتظرة ستهب من حلقه.

كشف لي عن وجهه المقبوض، ووجه لي ضربته المضطربة، وبعد ان انتهى، أمسك بمجهري ورماه بعرض الحائط ليتحطّم ويتبعثر الى قطع صغيرة.

كانت هذه الضربة الطائشة هي اللحظة الفارقة، والخطوة القادمة لصالحي والتي ستخترق الحاجز البرزخي، فاتخذت قراري.

لم ألقي بالاً لأبي، باستثناء قلبي الذي انفصم عندما هشّم مجهري، لقد كان كالإله بالنسبة لي، تماماً كجاغاناث وبالابهادرا وسوبهادرا وسودارشانا المصنعة من خشب النيم والذي يعبده الهندوس، كنت أنظر الى حبات مجهري المتطايرة وعيني مشدودة.

في هذه الأثناء تلقى أبي اتصالا من شرطة الحيوانات، أبلغوه بتعرض ديك جارنا للذبح، فشعر أبي بثقل يضغط على صدره، وأخذ جرعة كبيرة من الهواء كي لا يختنق، ثم نثره دفعة واحدة كي لا تنبجس رئتيه.

نظر لي بعين مطفية وقال: "هل لك أي يد في قتل هذا الديك يا موسكولوس؟!"، درت ظهري له، ولم أعيره أي اهتمام، وهممت بالخروج.

أثناء صعود الدرجات، سمعته يهاتف احدى الأطباء النفسيين، فقد كان يشك بقتلي لديك جارنا، تسمرت مكاني، أرهفت سمعي أكثر، لقد كان يستغيثه كي يجلبني اليه لكي لا يتعرض للمساءلة القانونية.

وبالفعل.. تم ترتيب الموعد وجلبي على وجه السرعة، عندما جلست إزاء الطبيب النفسي، طلب مني أن أتحدث وأنصت لي، ولكني وجمت طويلا، حتى تحدّثت اليّ نفسي: "أنت الذي يسكن الألم في كل قسماته، وعليك أن تتعلق بخيط نجاتك، بالعودة الى حظيرة الايمان أولا، وهي أملك الوحيد، ثم الأخذ بالأسباب ثانياً، ألا وهو هذا الطبيب، علّك أن تعود لي، ولا تغرق في طين الآثام والشرور أكثر فأكثر".

ثم عدت من الحديث مع نفسي إلى الحديث الى هذا الطبيب، وكانت أعيني تفيض بالرجاء وهي تنظر اليه، وتتحدث بأحرف لا يمكن لكل لغات الأرض أن تقولها: "الله باعث الآراب للإنسان أيها الطبيب، لقد كنت أسير كشمعة تحترق لتنير الآخرين كما تنير غرفتي.. ثم صمت على الفور"، ولم أتطرق الى الحديث عن غدراتي وكواليسي، وعن داخلي المحطم ومشاعري المكسورة الدفينة على يد أبي وأخوتي وأصحابي".

أخبرته فقط برغبتي القوية لاصطياد الحيوانات، وشغفي في تشريحها واستخراج الأعضاء، وأحيانا في ميلي لقتلها متخيلا أنها أحد من آذوني وأهانوني وتنمّروا واعتدوا عليّ، وكان كل ذلك في محاولة مني لإصلاحي والعودة لي، وبعد أن انتهيت، سألني الطبيب: "هل تتبول كثيراً أثناء النوم؟"، فأجبته والغضب يتقلقل على

محيّاي: "ليس من شأنك!"، فرد الطبيب بحديّة: "يجب أن تخبرني، فهذا جزء من العلاج ويترتب عليه مستقبلك".

كلمات الطبيب قرصت أذني! فاض الذهول على وجهي، ثم تحدث بنبرة مرتجفة: "مستقبلي!!"، فأجاب الطبيب بصرامة: "نعم.. مستقبلك"، فلبّيت: "نعم.. أنا أتبول كثيرا أثناء نومي".

أجلّ الطبيب نظره في وجهي، ثم قام بتقييم شامل لتحديد نوع الاضطراب النفسي الذي أعاني منه، وبعد مجموعة متنوعة من الاختبارات والتقييمات، تبين لديه أنني أعاني من اضطراب يُدعى "ثلاثي ماكدونالد"، وهي نظرية نفسية تقول بأن هناك ثلاثة علامات إذا اجتمع منها علامتين في شخص ما، فقد يتحول إلى قاتل متسلسل في المستقبل.

أول هذه العلامات هي "إيذاء الحيوانات"، والثانية "كثرة إشعال النار في الأشياء"، والثالثة "كثرة التبول أثناء النوم"، وعندما خرج الطبيب من العيادة واتجه نحو والدي، استوقفه أبي وانفغر فاه بأسئلة متتالية: "مِن ماذا يعاني نعمان؟ هل الأمر خطير؟ هل يمكن علاجه؟"، فردّ الطبيب بوجه بائس: (للأسف.. اجتمعت علامتان في نعمان، الأولى "إيذاء الحيوانات "، والثانية "كثرة التبول أثناء النوم"، وهذا يعني أنه يعاني من اضطراب "ثلاثي ماكدونالد"، والذي قد يحيله في المستقبل الى قاتل متسلسل).

صُدم أبي من هول ما سمعه، وظل واجماُ، ثم تابع الطبيب حديثه بضرورة متابعة حالتي في العيادة من أجل الشروع في علاج لمشكلتي الصحية والعقلية إن تمكن من ذلك.

ركبنا الطريق الى المنزل، كانت اللغة مفقودة في جعبات الصمت، إذ ليس في الكلام أي جدوى، ونحن لسنا في موضع البحث عن الأسباب، لأن حجم المأساة الّتي غرقت فيها أكبر مما يُتصوّر، وأضحى واقِعًا أكيدًا وأليمًا.

ان المرض النفسي ليس عدوّا كلاسيكيّاُ، وإنما عدو من نوع آخر، إنّه يضرب بلا سيف، يطعنُ بلا خنجر، يهوي بلا بلطة.

ضربته تعادل ضربة مطرقة إله البرق والرعد "ثور"، وإنّها إن حلّت في جسمي لن تخرجُ منه إلا ان يتدخّل الله ويخرجها بيديه الشريفتين، لذلك علينا التفكير مليّاً في معرض مُواجهته.

الفصل الرابع

" من القاتل"

قبل وصولنا الى المنزل، تلقّى أبي اتصالاً بخصوص حدوث جريمة قتل، حيث كان يعمل ضابطاً في المباحث الجنائية التابعة لشرطة المدنية، فأنزلني الى البيت، وتابع المسير.

انطلق مسرعاً لإصطحاب محقق الأدلة الجنائية نحو الواقعة، وعند وصولهم الى مسرح الجريمة -وهو عبارة عن منزل سكني- كانت هناك رائحة كريهة تفوح منه.

تتبع الرائحة وإذا بمسار من نقط دم تنطلق من صالون المعيشة نحو باب غرفة النوم، أخذ أبي والمحقق يقتربون من غرفة النوم، وكلما شارفوا للوصول استفحلت هذه الرائحة أزيد.

الى أن بلغوا باب الغرفة، وعندما فتحوه انتشرت هذه الرائحة العفنة في وجوههم، وما ان عاد اليهم رشدهم حتى وجدوا على السرير رجلاً سليم الجسد مطروح على بطنه.

تقدّم المحقق لفحص الأدلة في موقع الحادثة، وأثناء دورانه لاحظ بعض الدماء أسفل الرجل، فأمسك بجذعه وقلبه فوجده مبقور البطن، ومسروق الأحشاء، وكأن ضبعاً مزّق بطنه، والتهم أحشائه الداخليّة.

عندما شاهد أبي منظر الجثة المؤلم وتعرّف على صاحبها، سرح فيها، وسالت دمعة من طرفِ عينه، انحدرت ببطء، وكانت شفتاه تتحرّكان، يهمهم ويغمغم، فسأله المحقق: "بتعرف صاحب هاي الجثة يا مهند؟"، فأجاب أبي بنبرة قلق: "لا..لا.. ما بعرفه".

تهدّلت سيقان أبي، وقال بصوت حزين ومهزوز: "ايش هالمجرم هادا؟ ما عندو قلب؟ ما عندوا رحمة؟ كيف قدر يعمل هيك؟ كيف قدر يسوي هيك؟ مستحيل يكون من جنس البشر؟! مش قادر أصدق انو في بني آدم بعمل هيك؟!"، وتابعت دموعه الانهمار على خدّيه بصمت رغما عنه.

هدّأ المحقق من حُزن أبي، وقال له بهدوء وبحزم: "حط عقلك في رأسِك يا مهند، تماسك، احنا بنتعامل مع وحش كاسر، مجرم حقير، شيطان، ولازم ما نخليه يكسرنا، لأنو هذا اللي بدو اياه، انو يكسرنا".

عندما اقترب محقق الأدلة الجنائية أكثر لفحص الجثة من الجانب الأيسر للسرير، وجد على الأرض جثة أخرى لرجل آخر، فصاح يقول: "هاي كمان جثة.. هاي كمان زلمة مقتول"، أخذ يُعاينها ليجدها متحلّلة بعض الشيء.

مد أبي برقبته ليشاهد الجثة الأخرى، وعندما رآها ازدادت دموعه، وخرّ على ركبتيه، وشدّ على أسنانه محاولاً كبت نشيجه، فربت محقق الأدلة على كتف أبي وقال له: "بعرف إنو المنظر صعب يا مهند"، فرد أبي: "آه والله.. صعب جدا"، ثم قال المحقق وعيناه تتطايران شررًا: "شكلةه القاتل فش في قاموسه رحمه، ايديه شغالة بالذبح وبالنبش، بس بدنا نتأكد بالأول انو اللي قتل انسان والا حيوان، في احتمالية بسيطه أنو يكون حيوان".

لم يتفوه أبي بأي كلمة، وكأن صوته ذاب في حنجرته، وفقد القدرة على الكلام، فقط كانت أعينه تغوص في الجثتين، حتى قطع المحقق انغماسهما وقال لأبي: "ما معانا وقت يا مهند.. خلينا ندور على البدري، عشان اذا كان انسان نحاول نمسكه قبل ما يقتل ضحية جديدة".

بحث محقق الأدلة في المحيط عن أي دليل لكن دون جدوى، فوقف وقد بدا شديد الحيرة، وأخذ يرسل عينيه من أخمص أقدام الجثتين الى قمة رأسيهما، ثم التفت الى أبي وقال له وهو في هيئة ضياع:

"يبدوا أن حادثة القتل هذه حصلت منذ وقت قريب.. لكن الغريب فيها أن الجثتين تتواجدان في نفس الغرفة وتحت درجة حرارة واحدة وثابتة، فكيف تكون احداهما سليمة والأخرى متحللة بعض الشيء؟!".

ثم وضع قدمه على سطح المقعد، وركز رأسه بقبضة يده، وأخذ يسأل وهو في حالة تيه: "هل تعتقد أن هناك مسافة زمنية بينهما يا مهند؟!".

فردّ أبي: "إن المعلوم والصحيح هو أن الفترة الأولى من تحلل الجثة تبدأ بعد الموت مباشرةً، أي بعد ٤ دقائق تقريبًا من الوفاة، فعند انقطاع الدورة الدموية والجهاز التنفسي عن العمل، لا يمكن للجسم الحصول على الأكسجين، وكذلك لا يمكنه التخلص من الفضلات، ما يؤدي الذي ارتفاع مستويات ثاني أكسيد الكربون في الدم، وهو ما يصنع بيئة حامضية تعمل على تمزق الأغشية، وهذا التمزق ينجم عنه إنزيمات تحلّل خلايا الجسم من الداخل للخارج، وهذه المرحلة تُعرف باسم التحلّل الذاتي".

ثم أردف يقول: "وأمّا عن عملية التحول لهيكل عظمي، فعادة ما تتطلب من شهر إلى عدة سنوات، وذلك حسب طريقة الدفن المعتمدة، وبحسب البيئة المحيطة، والظروف الجوية الخارجية، مثل درجة حرارة الجو التي تزيد أو تنقص من عمل البكيريا والكائنات الحية الدقيقة، إذ إنّ الحرارة المنخفضة تبطّأ من نشاط البكتيريا وقد تعدمه نهائيًا، كبعض البيئات التي تنخفض فيها درجات الحرارة إلى ما دون

الصفر، ما يُؤخر من عملية التحلل والتحول إلى هيكل عظمي، أما الحرارة المرتفعة فتسرّع من نشاط البكتيريا ووتيرة تكاثرها، وبالتالي فإن سرعة تحلّل الجثة تزيد مما يحولها إلى هيكل عظمي".

وأكمل: "في غضون دقائق من الوفاة تبدأ عملية التحلل، إلا أن هناك عددا من المتغيرات، بما في ذلك مواد التابوت وحموضة التربة ودرجة الحرارة المحيطة، والتي يمكن أن تؤثر على المدة التي يحتاجها الجسم حتى يصبح هيكل عظمي، ومع ذلك وفي المتوسط، عادة ما يشرع الجسد المدفون في غضون عام داخل التابوت نموذجي في الانهيار، ولكن يحتاج ما يقارب إلى عقد من الزمان حتى يتحلل بالكامل، ولم يتبق سوى الهيكل العظمي".

ثم ختم يقول: "وفي الغالب تتحول الجثة المدفونة بدون تابوت، إلى هيكلها العظمي في غضون خمس سنوات، والتي لا تحتوي على حماية من الحشرات والعناصر الأخرى".

ثم صمت قليلا وأخذ ينتقل عبر فصول الجريمة، كي يفهم من أي طريق تسير، ثم رجّ رأسه وقال: "إن تحلل الجثة يعتمد على الحرارة المرتفعة وحموضة التربة، ولكن الجثتين فوق الأرض، فكيف للأرض أن تأكل جسداً وتترك آخر؟! كما أن الوقت الزمني لكلتا الجثتين قريب؟!

توقّف والدي عن سيل التفاسير والتحاليل، وأخذ يجر في قدميه حتى وقف، ثم غادر من موقع الجريمة مُثقلاً بالحزن والهم بصحبة المحقق لجمع التفاصيل حول الجثتين من الأقارب والجيران ومكان العمل.

في هذه الأثناء، كنت أتمدد فوق سريري، وأقيم جنازة صغيرة لمجهري المقدس الذي دشدشهُ والدي في مخيلتي، وأثناء إمعاني النظر بحرقة الى أجزائه المنثورة على الأرض، انكمش قلبي تحت نغزة خنجر الألم، ورحت أتحسس صدري، وأتلفت إلي، ثم خرجت الى الطبيعة كي أكسر الحصار المفروض على كاهلي.

أثناء انطلاقي دون وعي مني، توقفت عند احدى الأشجار لآخذ نفساً، وجعلت أوزع نظري كالمنارة في جميع الاتجاهات، وللصدفة كان هناك قنفذاً ضخماً عالقاً في الطمي على بُعد عدة أمتار من مكاني، فتحرّكت الشّهوة النّائمة في صدري، وخطوت نحوه ببطء وحذر.

وقفت تِجاهه، وجعلت أنظر اليه كبرج عملاق ينحني برأسه الى الأمام، لقد بدا أنّه ككرة القدم يتكّور على نفسه، وهو يتضاغى، وقد اختلج صوتُه الخارج من فمه الصّغير.

لا أعلم كيف شاهدت وجه والدي مكان وجه القنفذ، لقد كان مضحكاً للغاية، نظرت اليه نظرة ازدراء وقلت له: "ربما الحياة ليست للجميع"، جعلت أبحث عن أصيص لأضع القنفذ في داخله، حتى عثرت في النهاية على واحد مهترئ قد أكله الصدأ.

هبط الليل في ساحة الطبيعة، فأمسكت القنفذ من قدميه، ووضعته في جوف الأصيص، ثم عدت أدراجي الى القبو.

أحضرت عصا المكنسة من الحمام، وتنكة "السّفن أب" من الثلاجة، ثم قلبت القنفذ على ظهره، ووكزت عصا المكنسة في بطنه بقوة، ففتح القنفذ فمه وراح يئن من شدة الألم.

فتحت تنكة "السّفن أب"، وسكبت المشروب الغازي في فم القنفذ متجاوزاً كل الأطر الرحموتية، وأثناء ضياع الأطواق بين الخيال والواقع، شحذ الخيال وجه أبي لأصرخ: "مين هوّة الدب يا دب؟ مين هوّة النتن والوسخ؟ مين هوّة موسكولوس يا تافه؟ جواب؟! والا انخرست هلأ؟".

ازداد صممي عن الإنصات الى استغاثات القنفذ، فركت بالعصا بطنه، ثم كبستها بكل ما أوتيت من شكيمة، ومكثت أسكب "السّفن أب" في فمه حتى اختنق وغادر الدنيا.

جلست بجانبه بضعة دقائق وأنا أحدّق فيه، انداح في فؤادي الفرح، وغمرتني موجة من السعادة بعد أن فارق هذا القنفذ البائس الحياة، ثم نهضت وركلته بقدمي نحو سلة النفايات كما يركل ميسي ضرباته الحرّة، وعند انصباب القنفذ بفمها قفزت سعيداً وكأنني أحرزت هدفا في الشباك.

انخلع الحزن عني كليّاً في طريقي الى القبو، فتحت الباب، ورميت بنفسي فوق سريري لمشاهدة التلفاز، عندما اشعلته كان يُعرض فيلم الرعب "هالوين" للكاتبة الأمريكية (ديبرا هيل) والكاتب والمخرج والمنتج الأمريكي (جون كاربتنر) على احدى المحطات، فأخذت أتابعه حتى انتصف الليل، بدأت عيني تتثاقل حتى دخلت في سبات عميق دون أن أعلم.

عند دخولي في النوم همس في اذني منادٍ: " إن القتيل ليس بريئا من جريمة القتل"، فاستيقظت وأنا أنظر بهلع حولي، واذا بالشمس تلسع سحنتي، فجلست لأنتبه أن ملابسي مبللة، فبدلتها، وارتديت نعلي للذهاب الى المدرسة.

مررت بجانب والدي والذي كان يحتسي قهوته في فناء المنزل، ويرسم في مخيلته السيناريوهات المحتملة لمقتل كل من الرجلين، وأثناء مروري بمحاذاته سألني:

"بدّك أوصلك؟"، فأجبته والغضب يغطي وجهي: "لا"، فأشاح بوجهه عني: "يعني أنت كنت مفكر اني أنا راح أوصلك! أنا بتهبل عليك! روح مشي أو ركضما بيفرق، المهم كرشك يختفي يا موسكولوس، بلكي الناس حبتك، وبرضو ما أعتقد".

ظل يلمزني بعينه حتى غبت عن ناظريه، ثم غادر بعدها الى عمله بمركز الشرطة في المدينة، واجتمع بفريق التحقيق، وتوسط المنضدة، والتي كان على سطحها ملفات وصور للجثتين.

الرجل الأول يُدعى "جاسم أمين"، والآخر يُدعى "جعفر قاسم"، جاسم كان متزوج من فتاة تدعى "ميساء"، وكانت علاقته مضطربة بها، كما أنه ليس له أولاد منها.

أما عن جعفر، فقد كان عازبا، ويعيش لوحده في شقة بالآجار، وكان يقضي معظم ليله بالحانات والمراقص.

جاسم كان يعمل مدير بنك، وجعفر كان يعمل في حانة اسمها "كان زمان"، وهذه الحانة كانت تقع بمحاذاة البنك، وكان جاسم يتردد عليه بين الفينة والأخرى.

وضع أبي ذراعيه فوق المنضدة، وكانت أعينه تحدّق في صور الجثتين، يغيب فيهما ثم يعود مرة أخرى، وبعض الدّمعات تقطر من عينيه، ينظر في وجوههم بحنوّ وبألم ولوعة، وكأنه يودّ لو يلثمهما.

تنهّد أبي ثم أخذ يعيد تسجيل فرضيات القتل لكل منهما، حيث طرح كم من الأسئلة: "خلينا نبلش من جاسم.. مين اللي حفر بطنه؟ ممكن يكون انسان، وممكن برضو يكون حيوان؟ ممكن يكون جعفر القاتل؟ وممكن برضو يكون مجرم تاني احنا ما عنا اي معلومات عنو؟".

وأكمل: "طيب.. وجعفر.. معقول انو موتو يكون طبيعي، والا انتحار؟!".

ثم أردف يقول: "ممكن في علاقة بين جعفر وجاسم؟! معقول انو جاسم كتّف جعفر وخنقه؟ والا جعفر صابته سكته قلبيه لما شاف جاسم بطنه محفورة؟ والا صارت هاي الجريمة لأسباب غير؟"

توقف أبي هنيّة، ولف بوجهه نحو الجميع، وتابع: "بخصوص شغل جاسم.. هوّة مدير بنك، ممكن جعفر قتله بدافع السرقة؟ ونبش بطنه بفأس، وطلّع أعضائه؟ سعر الكلية الواحدة ببلش من ٢٠٠ ألف دولار ويصل الى ٤٠٠ ألف دولار!! مش بعيد إنو عمل هيك ليتاجر بأعضائه؟! وممكن يكون كلي اللي حكيتو فش منو، ممكن يكون هناك قاتل متستر خلف كل هاي الجريمة؟! وممكن يكون اللينبش بطنه حيوان.. خنزير.. ضبع..؟".

ضرب أبي ناصيته، وأمسك بعقله كي لا يفقده، ثم طلب تقرير الطب الجنائي، والموافقه للحصول على لقطات كاميرات المراقبة، سواء كاميرات الشارع أو الجيران كجزء من التحقيق في الجريمة، والإذن بالرجوع لأي تسجيلات قد تفيد في القضية، كما وطلب العودة مرة أخرى الى موقع الجريمة للبحث عن أي حفرة أو حتى شق في أرضية المنزل أو حوله.

غادرت الشرطة الى موقع الجريمة، وبعد مضي ساعات تواصل الأطباء في دائرة الطب العدلي مع أبي، والذين أفادوه بأن جاسم تم شق بطنه بفعل فاعل وليس بأنياء حيوان، وأن الأداة المستخدمة هي المعول "فأس ذاتُ يد ملساءَ من الخشب وسنّ رفيعة من الحديد"، كتلك التي تستخدم في نبش الأرض بغرض الزراعة.

كما أن جعفر لم تكن وفاته طبيعية، بل أيضا بفعل فاعل، حيث قام القاتل بتطويق عنق جعفر بيديه، ثم خنقه حتى فارق الحياة.

ولكن الشرطة الجنائية أكدت لأبي بأن المحققون لم يتمكنوا من العثور على بصمة الإصبع الخاصة بالقاتل، أو أي أثر بصمة اخرى تعود للمجرم في مسرح الجريمة، أو عن أي أدلّة مادية.

استفسر منهم أبي عن سبب ذلك، فأجابوه بأن المجرم قد يكون لم يترك أي بصمات على الأسطح التي تعامل معها، إما بسبب طبيعة الأسطح أو بسبب اتخاذه احتياطات لتجنب تركها، فقد يكون المجرم قد استخدم قفازات أو مواد أخرى لتغطية يديه، مما يمنع ترك أي بصمات له.

وقد تكون البصمات موجودة، ولكنها تضررت أو اختفت بسبب عوامل بيئية مثل الحرارة، الرطوبة، أو مع مرور الوقت.

وبالنسبة للأدلة المادية، فقد فتّشت ونقّبت الشرطة في مسرح الجريمة عن أية حفرة أو صدع أو شق أو أثر في أرضية المنزل، ولكن دون أي جدوى.

أخذ أبي يحكّ برأسه كالأجرب ويتنفس كالثّور من شدّة الانفعال، ثم تأوّه آهة ثقيلة وضرب الطاولة بيده، فتدخل أحد المحققين لتلطيف المزاج، وقال له: "لا تقلق يا مهند، ما زال بجعبتنا استخدام أدلة أخيرة، وهي شهادات الشهود وسجل الاتصالات".

أرسل خلف سجل الاتصالات لمعرفة من الذي هاتف جاسم قبل أن يفعل فعلته الشنيعة، وتبيّن أن هناك ثلاثة أشخاص مشتبه بهم قد اتصلوا به قبل مقتله، وهم "أخاهُ، وسائقه، والخادمة".

وأثناء جمع المعلومات حولهم، تبين أن أخاهُ (باسم) يقيم في بريطانيا، وسائقهُ (معتز) كان في اجازته الاسبوعية، والخادمة (ميادة) كانت قد تركت العمل لديهم منذ فترة.

ما زاد المسألة تعقيداً هو أنه كيف لباسم أن يقتل أخاه جاسم وهو يقيم في بريطانيا؟! وكيف لسائقه معتز أن يقتل سيده -جاسم- وهو في عطلته الأسبوعية لدى عائلته في جنوب المحافظة؟! وكيف ستقتل الخادمة ميادة رب عملها -جاسم- وهي قد تركت العمل لديه منذ أكثر من شهر؟!

من المتهم بالقتل؟

هل كان أخاهُ "باسم"، أم سائقه "معتز" ام الخادمة "ميادة"؟!

الفصل الخامس

" أنا المسيح"

طلب أبي في ذيل اليوم استكمال التحريات، والتوسع في عملية الاستقصاء وجمع المعلومات بهدف الكشف عن الحقيقة والوصول الى هوية هذا القاتل، والدوافع التي كانت سببا في قيامه بهذه الجريمة.

عاد بعدها الى المنزل مرهقا وهو يفكر في هذا الشيطان الذي ألبس نفسه قامة الآدمية وانتشر في جسد الجثتين وانتزع روحهما حتى وضع رأسه على الوسادة، ونام وسط غمرة تساؤلاته وشروده.

وفي صباح اليوم التالي بدت السماء منظفئة، والشمس خامدة، استيقظ أبي والسؤال يحوم في رأسه "من القاتل؟"، كانت عقارب الساعة تؤشر نحو التاسعة، وأثناء ما كان يتجهز للذهاب الى العمل، جاءهُ اتصال من ادارة المدرسة، تخبره أن يحضر على الفور.

وعندما وصل، تم إعلامهُ بأنّني مصدوع، لا أبدي أي تفاعل أو نشاط في الصف، وعليه أن يعرضني الى طبيب نفسي على وجه السرعة.

زرت الطبيب النفسي ذاته، والذي قام بتشخيصي بثلاثية الاعتلال الاجتماعي أو ثلاثية القتل "ثلاثي ماكدونالد" قبل بضعة أشهر، والتي قدّمها الطبيب النفسي "جون ماكدونالد" عام ١٩٦٣م، وتبين أن الازمة النفسية التي أعاني منها كانت بحجم عرض الكون، ولا يمكن العودة الى نقطة النور ولحظة الانفجار العظيم.

بعد أسابيع من تردّدي للعلاج قال لي الطبيب النفسي: "حبيبي نعمان.. أحاول أن أُخيّط جراحًا لا يراها الناس، ولكني فشلت في خياطة جرحك"، ثم حكّ أنفه، ونهض من مكانه حتّى صار إلى جانبي، وقال لي بكل عناء:"ربما الحياة ليست للجميع".

ابتسمت وهمست لنفسي: "نفس العبارة التي قلتها للقنفذ قبل أن أسلبه روحهُ"، هممت بالخروج وأنا أوشوشها: "توقفت عن زيارة الطبيب النفسي عندما تأكدت أنه شفي تماما.. أليس كذلك يا وودي آلن؟!"، وأغلقت باب مكتبه خلفي.

أخبرالطبيب والدي عن تأزم حالتي وتعقيداتها، وأن شِريان العلاج انقطع، ولا فائدة ترجى، لم يصدّق أبي أن هذا يحدث فعلاً، فلم يعد يرى موتي حقا، يمر عني كمن ليس له في مروره من حظ سِوى النّظر إلى كرشي المُتدلّي.

حاله كحال آلاف الأفواه الّتي مرّت عن بطني، وكانت تتفاوض في اختيار نعت ولقب لكتلة اللحم التي تتكرش أمامهم.

حملت بعضي وانصرفت من أمام والدي وأنا أتمتم: "ألم يقرؤوا هؤلاء الحمقى لفيودور دوستويفسكي؟! أنا على حافة الإنهيار النفسي، وأحتاج للإحتواء أكثر من حاجتي للنصح والعتاب!! فضلا على الشتيمة والسُّباب؟!".

كنت أعاني من قلق النوم، لا أرغب به لشدة المرائي المرعبة والكوابيس المخيفة التي أراها في منامي، ولكم أن تتخيلوا الحياة المقيتة التي كنت أعيشها مع نفسي، وحدة في الصباح، ووحشة في الليل.

عند حلول المساء، انبطحت على السرير، وثقلت وجنتاي، وقبل أن أغطس في النوم همس في اذني هامس: "نعمان.. حياتك مجرد تراجيديا، ولقد مررت بسنوات ثقيلة، ولم يتبقى لك شيء لتخسره، ولا يمكن لأي بشر في هذا الكوكب التعيس أن يؤذيك بعد الآن، إن كل من هم حولك يحددون لك الحلال والحرام، والصواب والخطأ، والمسموح والممنوع، ويقتلونك في اليوم مئة مرّة وكأنك لست من بني الإنسان؟! الجميع كان قاسياً وظالماً بحقك، وعلى وجه الخصوص والدك اللعين، وهذا كفيل بأن يجعلك قاتل؛ نعمان.. أقتل أباك، وسأمسح اثمك من كل الأذهان".

قمت مفزوعاً، وأوجست في نفسي خيفة، وجعلت أستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، وأقرأ الفاتحة والمعوذات حتى سكن روعي، وقلت لنفسي بصوت عالٍ: (لا يمكن أن أقتل والدي! انه مهما كان والدي، وصحيح أنني أكرهه وأمقته حد الموت، ولكن لا يمكن أن أقتله! لأن الله تعالى قال: "وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا -الآية رقم ٩٣ من سورة النساء- وهذه الآية تتحدّث عن النّفس المؤمنة، فمن أقدم على إنهائها فليعلم أنه سينتظره خمسة عقوبات، كل عقوبة ألعن من أختها! وليس له توبة! بل غضب عظيم وعذاب أزلي ولعنة طاردة، لذلك لا يمكن أن أنهي حياة والدي؟!).

تظاهرت أنني لم أسمع شيئا، ثم عدت للنوم مرة أخرى، ولكنّ أعيني أبت الهجوع، فرحت اقلّب ناظري في السماء عبر شباك غرفتي، واذا بذات الهامس يهمس بأذني بلطف: "لو أنك متّ الآن، هل تعتقد أن والدك سيتأثر بذلك؟ لا يا حبيبي، بل على العكس، سيمشي فوق جثتك! انك تمر كل يوم من أمامه يا نعمان، ولكنه لا يلاحظ وجودك من الأساس، لأنك موسكولوس بالنسبة له، وليس ولده نعمان!!".

نفضتُ رأسي وأنا لا أصدّق ما أسمع، ورحت أصفع وجنتي، ثم قلت له وأنا لا أكادُ أنطقُ الكلمة: "بحق الله من أنت؟ وهل أنا في حلم أم في علم؟!"، فأجابني بهمس لا يسمعه سِواي: "كل ما تسمعه واقعي، وليس من بنات الخيال".

ضرب هذا الصوت عقلي وكدت أن أجن، فتوسّلته وأنا أبلع ريقي: "أرجوك أن تخبرني من أنت؟ يكفيني كل ما يحدث لي! لا تجهز على ما تبقى مني؟"، فردّ الصوت: "لا تقلق.. سأجهض كل نفس تحاول المساس بك، لكن عليك أن تعلم أنه لا يوجد أي شخص في الكوكب يضع نفسه مكانك أو يكترث لأمرك سواي، وهل تظن أن والدك وكل من حولك يشعرون بك؟ بالطبع لا، إنهم يريدونك لعبتهم، أضحوكتهم، مهرّجهم، ملطّة لهم في كل يوم ووقت وحين، وفي المقابل لا يحق لك أن ترفض، أو تعترض، أو حتى أن تكره ما يصدُر عنهم؟!".

كنت أصغي بصمت لهذا الصوت، وكأنه يعرفني! وعلى حين غرّة مرّ بجانبي، وكأنّه تيّار أو ريح سريع، بعدها هدأ المكان، وبقيت جاثِمًا مكاني من شدّة الرّعب.

عندما سطعتِ الشّمس كنت لا زلت أفكر بهذا الصوت العجيب، هل هو شبح لأنهم يقولون أن الأشباح تتحرك بسرعة، كما ويقولون أنهم ذات أوصاف متعددة، بين وجود غير مرئي، أو أشكال شفافة بالكاد تُرى، وصولًا إلى كيانات واقعية تشبه البشر، وهل كان سعي هذا الشبح للتواصل معي من باب الشفقة على حالي، وخراجي من الرّجاء الميؤوس؟!

أم هل هو جن.. فالجن يمكنهم التنقل بطرق لا يمكن للبشر تخيلها، حيث يُقال أنهم يتنقلون عبر الفضاء وحتى في باطن الأرض بسرعة فائقة! ويُقال أنهم كائنات خفية، مكلفة، وعاقلة، مثل الإنس، لكنهم غير ماديين ولا يُرون على طبيعتهم الحقيقية، ويستطيعون التشكل في صور مختلفة، فهناك من لديهم القدرة على الطيران والتحول، وهناك من يعيشون كالحيات والعقارب، ولقد ورد لدينا في النصوص الإسلامية أن الجن يأكلون ويشربون، ويتزوجون، وينجبون، كما أن هناك جن صالحون وجن طالحون، وهم مكلفون بفعل الخير والابتعاد عن الشر، ويحاسبون على أعمالهم يوم القيامة.

أم أنه ملك كريم.. فالملائكة كائنات روحانية، ومخلوقات نورانية، يُنظر إليهم على أنهم وسطاء بين الله والبشر، وحماة ومرشدين، وخدام لله، مربوبون مسخّرون، عباد مُكرمون، ولا يعصون الله ما أمرهم، مكلفة بمهام محددة مثل تبليغ الوحي ونفخ الصور وغيرها.

ثم شردتُ طويلا وأنا أحاول التعرف على هذا الصوت اللطيف العطوف معي، الى حد جعلني كالتمثال لا أحرك ساكناً.

بعد عدة أيام، وأثناء ما كنت أركن ظهري على احدى أشجار الزيتون في الخلاء،

وأجمع رجلي الى صدري، وأرمي الحصى في وجه الطبيعة، عاد إلي هذا الصوت من غير مقدمات، ارتعتُ تمامًا في البداية، وشهقتُ بصوت عالٍ وأنا في مكاني، ولا أدري بعدها كيف تماهيت معه، وأصحبت رقماً مجموعاً فيه، ثم انساب في اذني كما ينساب اللحن من بين أصابع عازف الجيتار، وقال لي: "حبيبي نعمان.. ماذا يعني أن تخلق مريضا نفسياً، ثم تتخلى عنه؟!".

قلت له وقد اختلجت روحي معه: "ماذا تقصد؟".

فردّ علي وكانت كل كلمة ينطق بها تقع في قلبي موقعاً طروباً: "لقد صنعك والدك اللعين وكل من حولك من حثالة البشر، ثم تخلوا عنك جميعهم".

كانت عيناي تطوفُ في الأنحاء، تُرسِل نظراتها في كل نقطة في أرجاء الطبيعة، لعلها تمسك بماهية هذا الصوت، أو حتى أن تلمس طرفه، سألته وأنا مأخوذ بسحره: "من أنت؟".

فأجابني بصوت رائق: "ألا تعلم من أنا؟".

تحايلتُ عليه: "شبح".

فأجابني: "لا".

فقلت له: "إذن.. جن".

فأجابني وهو يبتسم: "أيضا لا".

توهّج وجهي، قلت له وفمي يقفز فرحاً: "هذا يعني أنك ملك كريم؟!"

فأجابني وهو يبتسم أكثر: "كلا يا نعمان".

نفذ صبري، فليس لي طاقة أن أحتمل أكثر من ذلك، وبينما كنت أنظر حولي بلهفة، وأنتظر رده بشغف همس لي: " أنا المسيح".

صمتت الطبيعة صمتاً عظيماً، وصار قلبي يخفق بسرعة، انحبست انفاسي، تراجعت إلى الوراء، ترنّحت، حتى حطت يديه الأثيرتين الحانيتين على مدارجي واستعدت توازني، فاستعبرت عيناي، ورحتُ أمسحُ الدّموع بطرفِ كُمّي: "المسيح!!"

عاد الي مرة أخرى هامساً: "نعم يا نعمان.. أنا المسيح".

رنّ اسمه كجرس الكنيسة في اذني، واقتلع فؤادي كالعواصف التي تجتث الاشجار والاعمدة والسقف من مكانها.

رحت أحدّق في السماء بذهول، وأستحضر صُوراً له: "المسيح بعينه!"، فرد علي كنغمة تسحبني نحوها بسحرها المبهم، وتتغلغل في مساماتي، كأن شيئا فيه يناديني: "المسيح هو هو لا غيره".

حاولت أن أداري دموعي، وأن أمنعها من الإنهمار، ولكنها انسابت كالمياه من الجبل، بدأت أفضي له بهمومي، وأبوح له بأسراري، فتسلل صوته الي من تجاويف الهواء كموجة دافئة: "لا داعي.. أعلم عنك كل شيء".

عقدت الدهشة لساني، وظللت صامتا لبضعة دقائق، ثم قلت له وكنت مطأطأ رأسي وبالكاد كانت تخرج الأحرف من فمي المربوط: "وغدراتي وفجراتي.. الرجلان اللذان ..؟!"، فأوقفني على الفور وتناهى الى سمعي صوته الحنون: "اسكت.. أعلم ما يختبئ خلف ملامح وجهك من قصص وحكايات، وانا هنا من أجلك، جئت لأنقذك من أنياب هؤلاء الصعاليك، ومن نزواتهم السرمدية، وأذيقهم من نفس الكأس التي تجرعتها، وأقضي على ما تبقّى فيهم من حياة، لأنهم سلبوا حياتك وأنت على قيد الحياة"، ثم غادرني دون أن يرشدني الى سبيل واحدة أشفى فيها من حبه.

جلست بعدها لساعات طويلة دون أن أتكلم، كنت أنظر بهوادة نحو السماء عاقدا يدي خلف ظهري، حتى نبهني سقوط القمر.

عدت أدراجي كنُقطة مُبعثرة، تتتحرّك في اتّجاهات مُتبايِنة، ثُمّ تسقط في فراغ ليس له أبعاد دون حراك، كنت أهذي حتى أنني تعثرت في الطريق بأحد أصص الشجيرات فوقعت على فمي وانجرحت شفاهي.

لم أكترث، أخذت أمسح الدم بطرف كفي، وقمت ونفضت ملابسي وأكملت طريقي الى المنزل، كانت الساعة العاشرة مساء حينما أردت أن ارتاح قليلا من عناء هذا اليوم الغريب والعجيب.

وضعت رأسي على الوسادة محاولا مراوغة المسيح وما قاله لي، ولكنّ شيئاً إذا غمر رأسك كان منخساً شغلك كلّما نحيته عن ذهنك: "ان كان ما رأيته حقا، كيف أشفى من حب المسيح لي؟!"، فكرت طويلا في برد يخمد نار السؤال المشتعل في رأسي حتى ثقلت جفوني وهويت في النوم.

طبعت الشمس اشعتها على صباحي فاستيقظت، لبست بنطال الجينز، وانتعلت الحذاء، وركبت الطريق الى مدرستي.

عند دخولي من باب المدرسة واتجاهي نحو باحتها، كانت سوار تقف مع ثلاثة فتية، الأول من اليسار كان قصيرا، والثاني كانت احدى عينيه مطفيّة، والثالث شعره

منكوش، وعندما شاهدوني راحت أعينهم تلاحقني أينما حللت، سمعتهم وهم يعلكونني ويطلقون شتائم غير مفهومة.

نظرت اليهم جميعا بلا اكتراث، ولن أخفيكم أني كنت أرسم سوار في مخيلتي كما رسم "بابلو بيكاسو" لوحته الشهيرة " غيرنيكا" عام 1937، وكما رسم "سلفادور دالي " لوحته الشهيرة "اصرار الذاكرة The Persistence of Memory " ولكني تجاوزتها، فكل شيء الا كرامتي.

جلست على المقعد الخشبي، وحينما كنت أدور بنظري كان صاحب الشعر المنكوش يرمقني ويعض على شفته السفلى، ثم أشعل السيجارة غير عابئ بأحد، وراح ينفخ دخانها في وجهي، فتقهقهت سوار، ولحق بقهقهتها الجميع.

انزعجت من علو صوتهم الذي اخترق هدأتي، وتحولت الى خلية فائرة: "يجب أن أضعُ نهاية صادمة ومُفاجِئة لكل الذين يسوقونني الى مذبحهم.. أنا موسكولوس، الدب العملاق".

قمت ثم توجهت الى صاحب الشعر المنكوش، وبدون مقدمات هويت بباطن كفي على وجهه، فسقط على الأرض وانثعب الدم من شفته، ثم صرخت في وجهه بصوت مبين: "احذر أنت وكل من هم بجانبك من الصعاليك.. عندما يتعلق الأمر بكرامتي، سأدعس عليك حتى لو كنت لُغماً"، ثم غادرت الباحة متجها نحو الصف.

كانت هذه المرة الأخيرة التي يتجرأ فيها أي أحد الى استفزازي أو السخرية مني، حتى المدير والمدرسين تحاشوني بعد هذه الحادثة.

أصدر المدير قرارا بمنعي من الجلوس على مقاعد الدراسة الى أن يتم علاجي كليّاً وتغير سلوكاتي الغير صحيّة، ولقد تم ابلاغ والدي بذلك، إلا أنه كان مشغولا بالجثث أكثر من انشغالة بحياة ابنه.

أكلتني الوحدة، وكانت تنهش في بدني، فكرت مرات عديدة بالانتحار، حيث حاولت مرة أن أنهي حياتي بأن أقفز على بغتة كي لا أتراجع عن قراري أمام سيارة مسرعة على الطريق العام، الا ان سائق المركبة سيطر عليها قبل أن تدهسني.

وأخرى حاولت فيها قطع شريان يدي، فانبثقت الدماء الى ان اغشي علي، وكنت وأنا أفقد وعيي سعيدا جدا ان هذه المحاولة سوف تنجح وتؤدي الى هلاكي، الا انني استيقظت في المشفى، حيث كان يلتف حولي الاطباء الذي نجحوا بإعادتي للحياة بعد نصف ساعة من السعي لإيقاظي.

ولكن عزائي كان في المسيح، حيث يجتمع بعضي حينما يتجلى في ذاكرتي.

لم يكن يعنيني انشطار كينونتي وتشظي ذاتي على يد حيوانات في هيئة البشر، سوى المسيح، فقد كان قلبي يضخ الدماء التي تحمل اسمه في كل خلايا جسدي، ولم أنسه، فقد كان وجعا يحرمني النوم، ولوعة في طلب رؤياه.

كلما كنت أخرج الى الطبيعة ينبشني صوته، فأشتم عبق المسيح، وينشغل رأسي في رسم صورة له في ذهني، شاب قوي البنية متوسط الطول، بشرته مشربة بالحمرة أو بلون بني خفيف، بلا لحية وشعر مجعد طويل، يلبس ثوبا لونه أحمر قرمزي، موشح باللون الذهبي على كتفه الأيمن.

مع هرولة الأيام كانت ذاكرتي قد سقطت في عشقه، ولم تنهض مرة أخرى.

في احدى الليالي نبهتني أحلامي، حيث تجلى المسيح لي بصورة وميض أو طيف أو أثير، لم أكن لأميز ماهيته، سحب ذاكرتي واختصر حياتي بالايحاء في بضع اللحظات، ثم جلب معه صورة، ودنا من أذني ووشوشني: "نعمان.. هل تعلم من هذه المرأة التي في الصورة؟"، فأجبته باستغراب: "لا"، فرد علي: "ألا تشبهك؟"، فقلت له: "قليلاً"، ثم سألته والفضول يقتلني: "من هي؟"، فرد علي: "انها أمك"، اختنق قلبي بالدمع: "أمي!!"، فرد علي: "نعم.. أمك"، ثم قال لي: "نعمان.. ابحث عن الحقيقة"، فأصغيت له دون أن أتلفظ بهمسة، ثم ذاب في فجاج الفضاء.

استيقظت وأنا أتفصّد عرقًا، كانت الساعة السادسة صباحا، نفضت الغطاء عني، وصعدت درج القبو والعطش الشديد يقتلني لمعرفة الحقيقة، دخلت صالة المعيشة وأنا أحوال التقاط أنفاسي، بحثت عن ألبوم الصور حتى عثرت عليه، وقفت أمام الصورة التي تجتمع فيها عائلتنا، توقف فكري للحظات قبل أن أصعق بالحقيقة، وهي أن المرأة التي نلتف حولها في الصورة ليست هي التي عرضها علي المسيح! واكتشت ان امي التي في الصورة ليست هي امي التي أنجبتني!

انحدر السؤال في رأسي بصخب ماخراً النواقل العصبية، والاشارات الكهربائية والكيميائية: "من هي أمي إذن؟!".

الفصل السادس

" رحم اشتقت إليه"

بعد رفس الجميع لي، ورفدي من المدرسة، وتجلي حقيقة أمي التي لم تكن أمي، انطلقت لأيام أرسم سيناريوهات القضاء على البشرية في رأسي، كنت متسطحاً على سريري، عاقداً رجلي في زاوية قائمة، واذا بنفسي تسألني على محمل الجد: "ما هي الدروب التي ستسلكها للقضاء على النوع الإنساني بأكمله؟ كيف ستنتقم من هذا الجنس وتمحيه عن بكرة أبيه؟".

فأجبتها: "نسكب مواد كيميائية كمركبات الرصاص، والزئبق، والكاديوم، والزرنيخ، والمبيدات الحشرية في أنابيب المياه، والتي تصب في خزاناتهم كي تتلوث بأكملها، فيموت الناس عند شربهم للماء".

فردت علي نفسي وهي تتشكك: "لكن هذه الطريقة تحتاج منك وقتا طويلا وجهدا عظيما، لا يمكنك القيام بهذا العمل لوحدك، أنصحك بالتفكير بكيفية القضاء على العالم بكبسة زر، هل يمكن ابادت البشر جميعهم دفعة واحدة.. في لحظة؟".

فكرت بعمق ثم أجبتها ثانية: "يجب أن أعْمَل النظر في أن أخرج في رحلة لوحدي نحو كوكب -K2 - 18b- لإلقاء الآلاف من القنابل الهيدروجينية لتفجير كوكب الارض بأسره، والقضاء على الجنس البشري من أولهم لآخرهم".

ردت علي نفسي باستهزاء: "وكيف ستصل للمحطة الفضائية -سكاي لاب- دون المكوك -إنديفور OV-105 - لتقذفك هناك يا عبقري؟".

ثم تابعت: "ثم كيف لك من الأساس أن تدخل وكالة ناسا لتطلب الاذن من مديرة الوكالة -جانيت بيترو- كي تنصرف في مكوك فضائي خارج الكوكب؟".

فأجبتها بحزم: "ان ذلك مستحيل! أليس كذلك؟".

فقالت لي: "صحيح.. فما الحل برأيك؟".

فأجبتها: "الأنسب هو القتل الفردي والعشوائي".

قررت أن اخرج من القبر الذي حفره لي جمّاء من حولي، وأن أحفر حفرة جديدة ولكن هذه المرة في جسد أبي الذي كان يعمل الآن بصحبة المحققين على مراجعة الكاميرات لمنزل جاسم.

تكشّفت حقائق جديدة في القضيّة، حيث وجدوا أن الجيب الذي يقوده سائقه معتز قد دخل في باحة المنزل متجها الى الكراج، ونزل منه جاسم، وعند متابعة الكاميرات لم يخرج؟! ممّا أثار فضول والدي وتسائل: "كيف ذلك؟! من قتل جاسم إذن؟ التحريات أثبتت أنه لم يقتل نفسه؟ ولم تكن عملية انتحار! من قتله إذن؟!".

والسؤال الآخر: "كيف جاءت جثة جعفر الى المنزل؟!".

كان التعب يرتسم بوضوح على وجه أبي، فلقد مرّ بأسابيع وعرة وهو يحاول فك اللغز لهذه الجريمة المُدوية، حتى جاءت الفكرة: "من الواضح أنه قُتل! لأن القاتل شق بطنه واستخرج أحشاءهُ، ويبدوا أن القاتل كان يختبئ في مكان ما داخل المنزل من أجل الانقضاض على جاسم"، وهنا توجهت الشكوك حول معتز -سائق جاسم- فتم استدعاؤه.

عندما بدأ والدي بالتحقيق معه، سأله: "أليست هذه المركبة التي تُقل بها جاسم؟".

معتز: "صحيح".

والدي: "أين كنت في هذه الفترة؟".

معتز: "مع عائلتي".

والدي: "ماذا كنت تفعل؟".

معتز: "أقضي اجازتي برفقتهم".

والدي: "أليس توقيت الاجازة كان على غير العادة؟".

معتز: "صحيح".

والدي: "وما الدافع الى تغييره".

معتز: "لأن أمي كانت مريضة، وأردت الإعتناء بها".

والدي: "هل لك أي يد في قتل جاسم؟".

معتز: "بالطبع لا.. وكيف أفعل ذلك! كيف لي أن أقتل من أعتاش بسببه! كما أن جاسم كان بالنسبة لي أكثر من أخ"، ثم تأوّه: "آه يا جاسم.. آآآآآآآه".

والدي: "يخلى سبيله بمحل اقامته الجبرية حتى نهاية محاكمته وصدور حكم نهائى ضده".

عاد والدي للمنزل بعد يوم شاق وعنيد، كان جل وقته للعمل، وفي فراغه يقوم بدور الملائكة مع إخوتي، أما معي فقد كان شيطاناً لعيناً، في المقابل كان مرضي النفسي يتفاخم وينتشر كالسرطان في كل خلية في جسدي، نتيجة الصدمات النفسية التي تعرضت لها، ولأنني لم أتلقى العلاج في باكورة عصف الإضطرابات بي.

قبل ذلك.. وفي مرحلة بلوغي، كان طولي مترين و٤٠ سم، وكان وزني ١٤٠ كيلوجرام.

كنت عملاقاً بمعنى الكلمة، وهذا كان عاملا مساعداً لإسقاطي لأي خصم بكل سهولة.

ان الطول هيبة -كما يقول المثل- لكن في حالتي كان عباره عن لعنة، حيث_آمنت أنه السبب المباشر لكره الجميع لي، والعزوف عن مصاحبتي والجلوس بعيدا عني، عزوف الجميع عني كانت علّته هو سمنتي المفرطة وطولي المديد، مما جعلني أعتقد مليّاً أن جسمي العملاق هو عبارة عن لعنة مرتبطة بي حتى موتي.

ولكن كان هذا في كفة، وما احدث فارقا في حياته في كفة أخرى، حينما علمت بمحض الصدفة في هذه المحطة من حياتي أنني نطفة حرام!! ولكن كان الأصعب حينما اكتشفت أن أمي كانت مومس -فاجرة- تعمل بالدعارة في حانة -كان زمان- والتي كان يعمل فيها جعفر، ووالدي كان يجامعها أيضاً بين الفينة والأخرى.

هجرت المنزل بعد أن علمت الحقيقة، وتأكدت من أزلية كره أبي لي، فأنا في عينه نطفة حرام في مآل الأمر.

انطلقت في البحث عن عمل، واشتغلت في مهن عديدة، "مراسل.. سفرجي.. دهان.. عتّال.. كازيّة"، لكن أرباب العمل كانوا يستغنون عني دائما.

افترشت الرصيف لأيام عديدة، هرباً من جحيم عائلة اكتويت بنارهم، ومن بشر اصطليت بشرارهم، ولم أرى والدي أو إخوتي لعدة أسابيع.

وعلى احدى الأرصفة المهترئة، واثناء ما كنت أغط بالنوم، قفز المسيح الى ذاكرتي، وتنشّق نشقة كبيرة، ثم تنشق بعدها واحدة أصغر: "نعمان.."، أرهفت سمعي، فقال لي بصوت واضح: "إبحث عن الحقيقة.. وسوف أنتظرك هناك".

استيقظت وكأن بدني قد تكسّر، أهذي: "أي حقيقة؟! سيدي المسيح.. انتظر! أي حقيقة التي يجب أن أبحث عنها؟ ألم تنتهي الحقائق بعد!!".

هممت من فوق الرصيف على عجالة أعرج وأنا أنتعل حذائي، في هذه اللحظة مر والدي بجانبي، وكان في طريقه نحو العمل، ولكنه لم يعرني أي انتباه.

كان ما يزال يعمل في قضية مقتل جاسم وجعفر، الى أن أتته اخبارية أن باسم -شقيق جاسم- في البلاد، فانطلق مسرعا وبعث بمذكرة لاستجوابه.

عند مُثول باسم للتحقيق، سأله والدي: "أين كنت كل هذه الفترة؟"

باسم: "في بريطانيا".

والدي: "وماذا تفعل في بريطانيا؟".

باسم: "أعمل في مطعم".

والدي: "ألم تعلم أن جاسم -أخاك- قد قُتل؟"

باسم: "أعلم".

والدي: "ألا يهمك الأمر".

باسم: "كلا".

والدي: "غريب!.. ولماذا؟".

باسم: "لأن أخي أكلني"؟

والدي: "ماذا تقصد؟".

باسم: "لقد ظلمني في تقسيم الإرث بعد وفاة أبي وأمي".

والدي: "وهل هذا يبرر عدم حضورك للجنازة، أو حتى تقديم واجب العزاء؟!".

باسم: "إن الظلم ظلمات، ولقد نال ما يستحقه".

والدي: "هل قتلت أخاك جاسم لأنه ظلمك؟"

باسم: "بالطبع لا.. ولماذا أقتله!!"، ظهر انطباع بارد على وجه باسم، ولم يكن الحزن واضحاً عليه، ولم يدلي بأي معلومات تساعد في انفكاكه أو تبرئته.

والدي: "يخلى سبيله بمحل اقامته الجبرية حتى نهاية محاكمته وصدور حكم نهائى ضده".

بعد انتهاء ساعات الدوام، جنّح والدي الى حانة -كان زمان- التي كان يعمل بها جعفر لاحتساء بعض النبيذ، فقد كان يرغب في الإختلاء بنفسه ونسج أحداث الجريمة وتداعياتها في الحانة التي كان يعمل فيها جعفر، ليتفاجئ بجلوسي على البار.

لم ينضم الي، وجلس على طاولة محايدة، وبدوري لم أكترث فقد كنت منشغلا ببلع النبيذ بطريقة وحشية.

اجترعت أكثر من عشرة كؤوس دفعة واحدة، والتي فتحت عيون القاعدين حول الطاولات نحوي بعجب، إلا والدي الذي شرع يقذف بأسهمه جهتي: "لا تتعجبوا منه.. انه موسكولوس.. انه على استعداد أن يبلع عجلا كاملا!!".

كان لطنزه هذا مصادرة لكرامتي أمام الجميع، وخصوصاً عندما حشر أنفه الطويل ومضغ سكينتي عندما قذفني بهذا النعت الحقير -موسكولوس- كنت بحاجة الى وقفة صارمة أمام نفسي لوضع حد لمغالاة والدي وتحقيره لي.

فما كان مني الا أن اشتعلت كالحمم البركانية، وانفجرت الكأس بيدي، ثم نهضت لأقتلع شجرة شبّ تحتها الظلم والقهر، فأمسكت بوالدي بيد واحدة، ورفعته نحو السماء، وصرخت في وجهه: "راح أعجنك زي الطحين.. ومش راح يطلع عليك الصبح اذا عدتها مرة تانية"، كان الخوف يتدفق من شقوق عينيه، ثم قذفت به خارج الحانة.

عدت الى حيث كنت أجلس، وهممت أبحث عن مهرب من توهاني، ضياع تجلّى لي من أرصفة منشعبة لا تحميني من برد، ولا تأويني من حرّ، ولا تسقيني من عطش، ولا تطعمني من جوع.

وللصدفة أن مدير الحانة كان يرقب كل ما جرى من خلف الكاميرات، لتخطفه قوتي وضخامتي، فأرسل خلفي، وعندما قابلته كانت التجاعيد تنتشر في وجهه، والصلع يزحف على رأسه.

كنت أنصت لوقع أنفاسه اللاهثة خلفي من وراء مكتبة المرصّع بالزخارف والأحجار الكريمة: "ما اسمك يا بني؟".

أنا: "نعمان".

مدير الحانة: "كم سنك؟".

أنا: "في التاسعة عشرة من العمر".

مدير الحانة: "هل ترغب بالعمل معي".

أنا: "يشرفني.. ولكن ما هي طبيعة العمل؟".

مدير الحانة: "بوديجارد".

أنا: "أتقصد حارس شخصي؟".

مدير الحانة: "نعم.. البوديجارد لهذه الحانة ".

وافقت بدوري، ولم أستفسر عن أي تفاصيل تتعلق بهذا العمل، فلم يكن امام روحي المثخنة بالجراح أي خيار.

بدأت عملي في هذه الحانة مستترا خلف نوافذها من كل ضيم لحق بي، في المقابل كان مدير الحانة يشعر بحميمة نحوي، فقد دست على كل شغب يحاول تعكير طمأنينة الحانة، ولأول مرة يضيء الأمان في قلبها، ولأول مرة أتحول انا من انسان ضائع الى انسان وجد نفسه.

أما عن والدي فما زال يركض خلف هوية القاتل، وكانت تختلط عليه الأمور أكثر كلما تعمق في ثناياها.

عند استدعائه للخادمة "ميادة" أخبرته أنها كانت تسكن في غرفة في منزل جاسم وزوجته، لم يكن لديهم أبناء، وكانت تعمل لهم منذ أكثر من ١١ عاما، وكان جاسم وزوجته "ميساء" يحبونها جدا، لأنها لم تكن تعتبر المنزل جغرافيا فحسب، وإنما قيمة تتشبث فيه، وتنشر فيه معنى التفاني والإخلاص والحب والتضحية.

في صبيحة يوم استيقظت فيه المنازل على نداء العمل، كان اذان الفجر قد سبقه فأيقظها، فأدت صلاتها، وشرعت في تلاوة ما تيسر لي من القرآن، وما أن انتهت حتى خطت نحو المطبخ لتعد الفطور لجاسم وميادة، وحينما انتهوا من تناول وجبة الفطور غادر الزوجين للعمل في المدينة، أما ميادة فقد أخذت تقوم بأعمال المنزل من تنظيف وغسيل وطبخ الخ..

وأثناء ما كانت تكنس الغبار في صالة المعيشة، سمعت أصوات قرع على حائطها، غلّف الخوف جسدها، حاولت ميادة معرفة مصدر هذا القرع ولكن ما من شيء، ثم أخذت تقنع نفسها ان هذه مجرد هلوسات، استمرت أصوات القرع تهدّد سكون نفسها، الى أن اختفت حين عودة جاسم وميساء من العمل.

تجاوزت ميادة بسورة البقرة سدفات الخوف، ولم تتطرق الى الخوض عمّا جرى لجاسم وميادة، وفي اليوم التالي وأثناء قيامها بعملها كالعادة، كان صوت القرع في الحائط يتجلى بشكل ملحوظ، ومن ثم استحال الى أصوات نعال تركض في الغرفة المجاورة، ومن ثم الى أصوات همس ووشوشات.

انتشر الخوف في خلايا ميادة حتى كاد قلبها ينفجر من شدة الخوف، وراحت تطوف بأعينها في كل غرفة وسقف وحائط وزاوية في البيت، ولكن دون جدوى، وكأنهم جان يعبثون معها، اندفعت ميادة كجلمود أهوج نحو غرفتها، وأغلقت الباب على نفسها، وأخذت تقرأ المعوذات وهي تهتز.

عند عودة جاسم وميساء من العمل اختفت الاصوات، ما أرغم ميادة على البوح لهما بأن هناك متطفلون يسيحون داخل المنزل، وأنها سمعت أصواتهم، تحرك جاسم وفتش المنزل برمته، ولكن ما من أحد.

لم تغفو جفون ميادة في تلك الليلة، وفي الصباح تركت العمل لدى جاسم وميساء، وغادرت المنزل الذي خدمت فيه ١١ عاما هلعاً، وكان لمغادرتها أثر عميق في قلب جاسم وميساء، والذين أخذوا المسألة على محمل الجد.

سأل والدي ميادة: "وماذا حدث بعد مغادرتك للمنزل؟

ميادة: "لا أعلم أي شيء".

والدي: "ألم تسمعي بنبأ مقتل جاسم؟

ميادة: "بلى".

والدي: "ألم تتأثري!".

ميادة: "بلى".

والدي: "لا يبدوا عليك الحزن!".

ميادة: "لا علاقة لي بمقتل جاسم إن كنت تومئ لذلك"

والدي: "ألم تعودي إلى المنزل بعد أن تركتِ العمل لدى جاسم وزوجته ميساء؟".

ميادة: "لا.. وانقطعت كل الاتصالات بيني وبينهم".

والدي: "سنرى إن كنت تقولي الحقيقة أم لا".

ميادة: "ربما أن البيت مسكون بالجن، وربما ان الجن قتلوهم!!".

والدي: "وكيف عرفت ان البيت مسكون؟".

ميادة: " كانت هناك اصوات غريبة تصدر من حائط غرفة المعيشة، وأصوات همس ووشوشات وخطى من خلفه! وعندما كنت أرسل نظري لا أرى شيئاً! من يصنع هذه الأصوات إذن؟!".

والدي: "يبدوا أنك متأثرة جدا بأفلام الرعب يا ميادة، أو أن هذه محاولة بائسة منك لابعاد التهم عنك".

تأفف والدي: " يخلى سبيلها بمحل اقامتها الجبرية حتى نهاية محاكمتها وصدور حكم نهائى ضدها".

غادر والدي العمل وهو ملطوم على وجهه، وعندما وصل للمنزل، استلقى على السرير وظل يفكر في القضية ويرسم اتجاهاتها، حيث استبعد أن يكون الموت قد انداح في جسد جاسم على يد خادمة تجر بنفسها، ولا تقوى على حمل جثة تزن ١٠٥ كيلوغرام ونقلها من مكان لآخر.

كانت المؤشرات كلها تحوم حول كل من باسم ومعتز أنهما متورطان في قتل جاسم، قد يكون أخاه "باسم" قتله بدافع الظلم الذي وقع عليه بتوزيع الإرث! وقد يكون سائقه "معتز" قد قتله بدافع السرقة.

الاحتمال الضعيف هو أن باسم لا يمكنه ان يفعل هكذا جريمة تحتاج الى بضعة ايام لتنفيذها، ولنقل جثة من مكان لآخر، لذلك كانت الشكوك تدور حول معتز، انه كان في هذه المركبة التي وقفت في باحة منزل جاسم، وهو الإحتمال الأقوى..

وقد يكون هناك فرضية ثالثة وهي أنه قد يكون له معاونين مدوا أيديهم بهذه الجريمة، قد تكون ميادة ساعدتهم، فهي تعلم كل ابرة في داخل المنزل وحوله.

ولكن قبل اصدار أي حكم في ملابسات هذه الجريمة، قرر والدي أن يتمهل، حيث أرسل في طلب في استدعاء ميساء زوجة جاسم لكي لا يقع في أيّة أخطاء، فقد يكون مفتاح حل القضية في يدها، وينتصر في فك شيفرتها الشائكة.

ونام بعد ذلك.

في هذه الأثناء كنت أتقن عملي في الحانة على أكمل وجه، أنزرع كالنخيل في كل زاوية فيها، أقبض بزمام الهيمنة عليها، وأرسل نظارتي كالسهام نحو أي شغب يريد أن يشتعل، فينطىء في أرضه، واذا اتّقد جزء منه كانت صيحة واحدة كفيلة بخلع قلب أي زبون.

أمّا بالنسبة لصاحب الحانة فقد كنت بمثابة سحابة حب تحيط بروحه وتمطره بالسلام والأمان.

والحديث يجر حديثاً حول هذه الحانة، فبرغم ابتلاعي لوالدي وكسر شوكته إلا أنه مازال يتردد اليها، ما جعلني أتسائل: "ما سر ذوبانه في هذه الحانة؟".

أنا لا أعلم النوايا، فنحن لنا الظاهر والله يتولى السرائر، ولكني على يقين بخبث سريرته، فنظراته كان يسطع منها الكره الجلي لي.

يجلس لوحده على الطاولة رقم ٧، يتجرع الخمر وسط مشاعر مبهمة، فأحيانا يهذي، وأخرى يذوي، وفي بعضها يبكي.

بمحض الصدفة كان مدير الحانة على وشك الخروج لغرض ما، فمرّ بجانبي وقال لي: "نعمان.. أنلني أذنك"، فأصغيت، فتابع: "أرأيت الرجل صاحب الحزن المختثر، والذي ألقيت به خارج الحانة في أول يوم عرفتك به؟"، فقلت له بصوت شفيف دون أن أفصح أنه والدي: "أجل .. تقصد الرجل الذي يجلي على الطولة رقم ٧؟"، فأكد لي: "أجل هو"، فقلت له: "وما خطبه"، فأجاب: "لقد كان على علاقة مع الساقي الذي كان يعمل لدي في الحانة"، فانساحت الدهشة على لساني: "ماذا تقصد؟!"، فرد بتهكم: "إنه شاذ.. وكان على علاقة متقطعة بجعفر، ولكن جعفر قد قُتل في أحداث غامضة، لذلك تجده يتردد الى الحانة بين الفينة والأخرى، ليتفحص روح جعفر فيها، فقد كان يحبه جدا"، ثم رفع يده مديري يحيّيني، وغادر.

أما عني فقد غصّت روعي في روح والدي، وأدمت النظر فيها بصدمة غائرة، وأطلقت روحي صوتاً صارخاً من خلف حنجرتي، فلقد تكشفت لي الحقيقة من وراء تعلق والدي بهذه الحانة، واهتمامة المفرط بمقتل جعفر: "إنه لوطي؟! على علاقة مع حبيبه جعفر؟!"

أيها المسيح، لقد كنت تسوقني الى قدر غامض، لقد عثرت على الحقيقة، لقد كان والدي شاذاً! وهذا سبب عيشه وحيداً، وعزوفه عن الدخول في أي علاقة مع أي امرأة بعد أمي؟!

أنا ممتن لك أيها المسيح، ولكن هناك سؤال يؤرّقني: "هل كان والدي شاذاُ قبل أمي، أم بعدها؟ أم أنه اكتشف ميوله في حضنها؟!".

عند انتهائي من العمل، كانت سدفات الليل الطويل تتوغل داخل غاباتي الموحشة، وتنبش ألما وراء ألم، من يصبر على ما أصبر؟! من يحتمل ما أحتمل؟! لم يثبتني أي شيء سوى استحضار المسيح، كنت أناديه نداءً خفيًّا، أناجيه أن يُهوّن علي الطعنات النافذة في فؤادي حتى غططت في النوم.

حتى في النوم كان والدي لا يلتقي معي، فعندما كانت أعيني تغوص في النوم كانت أعين والدي تستقبل سراج الشمس.

خرج الى العمل بعد أن شظفهُ النوم وهو يفكر بقاتل حبيبه جعفر، جلس خلف مكتبه، احتسى قهوته، كانت ميساء ترتقبه في غرفة الإنتظار، فأرسل خلفها لإتمام التحقيق معها، وما ان حضرت حتى طلب منها بحزم: "اخبريني ماذا حصل بعد مغادرة ميادة للمنزل؟"، فقالت ميساء والارتباك ينخر في أطرافها: (الحكاية كلها كالآتي يا سيدي:

قام جاسم بوضع أجهزة تنصت على الحائط، ووضع الى جانبه مكبرا للصوت، وذهب للعمل، وعند عودته اشعل الجهاز ليتأكد حقيقة من وجود أصوات خلف الحائط المتواجد في صالة المعيشة، فتش المنزل مرة أخرى، وأنا كنت الى جانبه، ولكن لم يتبين وجود أي أثر.

في الساعة الثالثة بعد منتصف الليل استيقظ جاسم من النوم ليجد أنني لست بجانبه على الفراش، فراح يبحث عني، فوجد باب منزلنا مفتوح، خرج ليبحث عني ليجدني أقف في منتصف الطريق الفاصل بين منزلنا والسهب، فسألني: "شو بتعملي هون؟ وشو مطلعك بهاي الساعة بنص الليل؟"، فأجبته: "مش عارفة.. ومش عارفة كيف وصلت هون؟!".

اعتقد جاسم بينه وبين نفسه انني أعاني من اضراب "NREM" السير أثناء النوم، وهو اضطراب نوم يحدث عادةً في مرحلة النوم العميق، فيحدث أن الشخص الذي يمشي أثناء النوم قد يقوم بأنشطة معقدة، مثل المشي أو تناول الطعام أو حتى الخروج من المنزل، وهو في حالة من اللاوعي.

في اليوم التالي استيقظت من النوم وتفقدت جاسم، والذي كان نائما بجانبي، ثم غادرت السرير لكي أذهب الى الحمام، ثم توجهت للمطبخ لأشرب الماء، وعندما لففت وجهي جهة باب المنزل وجدته مفتوحاً! فزعت قليلا، ثم تقدمت وأغلقته، ورحت لإيقاظ جاسم.

سألته بتشكك: "انت فتحت باب الدار اشي؟! أو طلعت بالليل اشي ونسيتو مفتوح؟!"، فأجابني: "لا.. أنا ما تحركت من التخت!"، ليزداد خوفي، ثم قال لي وهو يتثاءب بصوت عال: "خليني أنام، أنا منمتش طول الليل وأنا أفكر"، فقلت له: "نوم العوافي يا حبيبي.. نام"، وأغلقت الباب وذهبت لأعد الفطور.

أثناء تحضيري لوجبة الفطور سمعت أصوات همس وقرع في الحائط، صعد الخوف على ركبي، نظرت الى باب المنزل، فوجدته مفتوحاً على مصراعيه، ركضت باتجاه غرفة النوم، فتحت بابها، فوجدت جاسم ما زال نائماً، وقفت كالصنم، وصعد الى ذهني وجود لص داخل المنزل.

بحنجرة ملتهبة أيقظت جاسم: "حرامي!! حرامي في البيت!! قوم يا جاسم.. حرامي جوّة البيت!!"، فأجابني بصوت شحيح -ظانّاً أني أسير بالليل دون وعي مني، وأني أكون قد فتحت باب المنزل كعادتي- يا ميساء: "فش حرامي ولا اشي.. هدّي.. امبارح فتشت البيت خزق خزق وما بيّن اشي!! خليني أنام يا ميساء مشان الله.. لا تصحّيني.. حكيتلك أنا منمتش طول الليل مبارح"، وكاد أن ينفجر في وجهي.

سألتْني: "شو أعمل.. لازم أتغدى على الحرامي قبل ما يتعشى علينا؟"، سرت بخطوات بطيئة نحو المطبخ، درت حول مائدة الطعام وأنا أرسل نظري في كل الاتجاهات، ثم جلست أتناول الفطور، وفي كل لقمة كنت أسعى لانتزاع الخوف من رأسي حتى غلبني الخوف عندما تجلى صوت القرع والهمس مرة أخرى في الحائط، توقفت لُقُمات الطعام في بلعومي، كدت أن أختنق، أخذت أسعل حتى قفزت اللقيمات من فمي.

حثثت الخطى شطر الحائط وأنا أرتجف، مددت بعنقي خلفه، ولكن لا يوجد أحد، لوهلة ظننت أن منزلنا مسكون بالجن، ولكني لادينية ولا أؤمن بالخرافات، واذا بباب منزلنا يضرب بقوة، أمعنت النظر فإذا الباب قد أغلق والأصوات اختفت، توقفت بين نفسي ونفسي: "شكلوا الحرامي هرب"، انداح الصوت والهمس مرة أخرى حتى غطى الخوف أركاني، فقلت في نفسي: "هية طويله هالشغلة! يا أنا يا الحرامي بالدار".

انطلقت بسيقاني المرتعشة الى المدينة، توقفت عند متجر الاسلحة لأشتري مسدساً، فسألني صاحب المتجر: "مالك.. في اشي يا ميساء ؟! شكلك مش عبعضكِ؟! وليش بدك تشتري مسدس؟"، فأجبته: "في حرامي بضلو ييجي عالبيت عنا، وعلى يومين ورا بعض بدخل وبطلع من الدار، وفي أصوات توشوش في الحيط، وكمان صوت رجلين ناس بتمشي!"، فرد علي صاحب المتجر: "اصبري.. وبلاش تستعجلي وتعملي اشي تندمي عليه طول حياتك، ما بتنحل الامور هيك، أنا بنصحك اتصلي عالشرطة هسة".

أصخت السمع لمواعظه، أخذت نفساً عميقاً، وبعد أن سكن روعي قلت له: "معك حق.. شكلي بعاني من ضغط نفسي بسبب شغلي، أو يمكن بتهيألي كل هادا الحكي بسبب اني بمشي بالليل وأنا نايمة وما بشبع نوم".

أعدت قطعة السلاح، وشكرت صاحب المتجر على نصيحته وتخفيفه عني، وعدت ادراجي للمنزل.

عند وصولي، وجدت باب المنزل مفتوحاً، هبط الخوف على فؤادي من جديد، لأنني أغلقت باب المنزل حينما غادرت، تعاركت الأفكار: "هل استيقظ جاسم وخرج من المنزل تاركا الباب مفتوح؟! أم أن اللص هو من فعل ذلك؟!"،

ولجت الى الداخل وأنا أزعق: "جاسم.. جاسم..انت هون؟"، وأثناء اتجاهي نحو غرفة النوم فوجئت بقطرات دم على عتباب باب الغرفة، دخلت لأجد جاسم مقتولا وملقاً على بطنه فوق السرير.

شهقت بالبكاء، لم تعد رجلاي تقويان على حملي، سقطت على ركبتي، ورحت ألطم وجهي خوفاً وحزناً، ثم هرعت مسرعة وخرجت من المنزل دون وعي مني، عمدت الى بيت أختي، ولزمت الصمت لساعات طويلة، وبعد إلحاح كبير من أختي بالتحدث، أخبرتها بكل شيء، لتنصحني بإخبار الشرطة فورا.

أمسكت بهاتفي، وأبلغت الشرطة بمقتل زوجي، واخبرتهم بكل ما رأيته وما حدث معي).

وختمت تقول وهي تجهش بالبكاء: "هذه الحكاية كلها يا سيدي".

هوى والدي بيده على الطاولة: "لماذا لم تتصلي بنا على الفور؟! ولماذا تخبرينا بكل ما جرى بعد ساعات من الحادثة؟! ألا تعلمين أن الدقيقة تحدث فارقاً عظيماً! وأنه كان بإمكانك التسهيل علينا في القبض على المجرم لو هاتفت قسم الشرطة مباشرة من لحظة وقوع الجريمة؟!".

ميساء: "كنت خايفة".

والدي: "من إيش؟".

ميساء: "انكم تتهموني أنا بمقتل زوجي!".

والدي: "مهو تأخرك زاد الشكوك عليكي، ميمكن انت قتلتي؟! أو كنت ايد في قتله؟! كل اشي وارد".

ميساء: "أنا ما بعرف ولا اشي غير تنو أنا خايفة كتير!!".

والدي: "شو هالاستخفاف؟! بعد تلات اساعات بتبلغينا بانو زوجك انقتل؟! مش معقول!!".

ميساء: "والله هذا اللي صار معي يا سيدي، وأنا حكيتيلك اني خايفة كتير!!".

والدي: "ما شفتي اشي غريب بوضعية زوجك المقتول؟".

ميساء: "متل ايش؟!".

والدي: "بطنه كانت مفتوحة ومحفورة! وكل أعضائة مشيوله من محلها!".

صاحت ميساء: "ايش بتحكي! مستحيل! بطنه كانت سليمة! بس كان في دم تحت منها".

والدي: "وشو عرفك؟! انت فقدت الجثة اشي! قلبتيها عشان تتأكدي؟!".

ميساء: "لا والله.. بس كانت واضحة الي انها سليمة".

والدي: "راح نتأكد من حكيك اذا كنت بتحكي الصدق والا لا!!".

ثم ختم والدي: "يخلى سبيلها بمحل اقامتها الجبرية حتى نهاية محاكمتها وصدور حكم نهائى ضدها".

ازدادت الامور تعقيداً أثناء طوفانها في عقل والدي، واختلطت عليه الأمور حول هوية القاتل أكثر، من هو يا ترى: هل هو أخاه "باسم"، أم سائقة "معتز"، أم خادمته "ميادة"، أم زوجته "ميساء"؟

أرسل والدي عينه بين جذوع الواقفين من المحققين، بهيئة يخفي فيها نشيجه المكبوت، وقال بنغمة يملؤها الألم: "عاودوا النظر مرة أخرى الى الكاميرات، لعلّنا نعثر على طرف خيط لكشف غموض حادثة القتل هذه".

ثم أخذ بعضه وغادر العمل.

في هذه الأثناء كان لدي موعد مع طبيب الأسنان، وكنت أجلس في غرفة الانتظار ريثما يأتي دوري، لمحت مجلة أسفل الطاولة التي تتوسط الغرفة التي أنتظر بها، فتناولتها، وقلت لنفسي: "السوس منشغل في احداث الوجع في ضرسي، وأنا سأشغل نفسي بهذه المجلة ريثما يحين موعدي".

عندما فتحتها كانت في مجال "Zoology"، وأثناء تصفحي لصفحاتها صعقت عندما اكتشفت سبب تسميت والدي لي بلقب "موسكولوس"، حيث أن هذا اللقب الذّميم -موسكولوس- يعني "الحوت الأزرق الكبير"، وهو أضخم حوت وأكبر كائن حي على كوكب الأرض، ينتمي لعائلة الهراكلة "Balaenopteridae" ويتواجد في جميع محيطات العالم، باستثناء القطب الشمالي، ويُعرف أيضًا باسم "الركولي الشمالي الكبير"، ويتميز بجسم طويل ومستدق وظهر أزرق رمادي مع بقع صفراء من الطحالب على جلده.

لقد كنت شبيها بموسكولوس الى حد ما، فجسمي طويل، وظهري عريض، وينتشر على جلدي بعض البقع الصفراء، لذلك كان ينعتني والدي بموسكولوس!

عندما اضطلعت على هذه المعلومة اختلجت خلاياي في جسدي، وامتلأ صدري بسيالات الحنق، وفكرت مليا بقتل والدي الذي ألقى بقدري من الشرفات الانسانية الى الحيوانية.

أخذت نفسًا عميقًا لأطرد هذه الفكرة المخيفة من رأسي، ولكني تذكرت المسيح

حينما بان لي: "ابحث عن الحقيقة، وسوف أكون هناك"، هل يقصد هذه الحقيقة! حقيقة كشفي لسبب تسمية والدي لي بموسكولوس! أم حقيقة شذوذ والدي! أم حقيقة أمي التي ليست بأمي! عن أي حقيقة يرشدني؟ لابد أنهن أكثر من حقيقية.. يبدوا كذلك..

في المساء تزامن مع توجهي للحانة من أجل العمل، عودة والدي من عمله، أخذ يعاينني من أخمص قدمي وحتى رأسي -يبدوا أنه لم ينسى ما فعلته به في الحانة- ثم حملق في وجهي.

تحاشيته، ولم أرغب بالاصطدام به في الوقت الحالي، فلقد كنت قد تأخرت في الذهاب الى عملي، ويمكنني أن أظفر به في أي وقت آخر، فهو لا يأخذ معي غلوة واحدة، ولكني رميت له هذه الكلمات: "موسكولوس.. ها.."، وما أن قلتها حتى استدر الغضب هيكلي، وأيقظتني يد المسيح: "احيانا تكون الكلمة اقوى من الرصاصة، لكن بالنسبة لوالدك لا مجال للكلمة، لذلك يجب عليك وضع الرصاصة في رأسه".

أكمل والدي طريقه نحو البيت، عند بلوغه احدى المنعطفات انتبه أن هناك من يلاحقه، فزع قليلا، حاول أن يتنصل من هذا الظل الخفي الذي يلحق به، ولكنه بقي ملازما له.

اختبئ خلف جدار احدى المنازل النائية، ثم التقط محموله لكي يتصل بزملائه بالشرطة، نظر الى الخلف ولم يجد هذا الظل، أدار برأسه يمنة واذا بشخص عملاق يحجب السماء من أمامه.

اقترب والدي من هذا العملاق حتى انكشف وجهه له: "موسكولوس!!"، فأجبته: "آه.. موسكولوس.. أكبر حوت على وجه الأرض يا حقير"، تلاحمنا بالسواعد، لكن لضخامتي لم يتمكن مني، حاول اللذوذ بالفرار، لكنه لم يتمكن، فقد أمسكت بطرف قميصه من الدبر، ثم سحبته وطوقته بذراعي، وأحطت بظهره نحو صدري، ورغم كل محولاته لتحرير نفسه والافلات من قبضتي الا انه استسلم في النهاية.

وكزته فسقط أرضا، ارتميت فوقه كسد بشري، وضممت بيدي العملاقتين عنقه وأنا أشخر له: "مشاعري غير المُعلنة لم تمت يا فرويد.. وها هي تخرج بأقبح الطرق"، ثم ضغطت بكامل قوتي عنق والدي حتى انفجرت عروقه ومات خنقاً.

أشعلت سيجارتي، وجعلت أنفخ وأنظر الى جثة والدي من بين دخان سجائري ما يقارب بضعة دقائق، ثم تحدثت الي: "البقاء ليس للأقوى ولا للأذكى .. البقاء للأكثر

استجابة للتغيير.. أليس كذلك يا تشارلز داروين".

كنت سعيدا عندما قتلته، فلقد تخلص من كابوس حياته والمنغص الاول لها، ثم أخذت أفكر بطريقة للتخلص من جثته: "ماذا أصنع بها؟ أين أخفيها؟".

تخلصت منها بطريقة عجيبة لا يمكن لأحد أن يتصورها، حملتها واتجهت بها نحو نحو منزلنا، هبطت الدرج الى القبو، وما ان دخلته حتى زحفت ذاكرتي بي لكل الحيوانات التي قتلتها وقطعتها، فقمت بتقطيعه وتشريحه، وبعد ذلك اتجهت به الى احدى حدائق الحيوان، ثم عمدت الى الأقفاص التي تتواجد فيها الاسود، وألقيت بأجزاء والدي أمامهم.

ظهرت لبؤة، وتناولت وجبتها الدسمة، ولكن مالم يكن بالحسبان هو أنه لم يكن يتواجد في قلب هذا القفص سوى أنثى الأسد هذه فقط، والتي شبعت ولم تكمل نقرشة الاجزاء جميعها، وتبقى نصفها.

ارتبكت قليلا وغادرت الحديقة على الفور كي لا يكشف أمري، وفي الليل جاء حارس الحديقة لإطعام اللبؤة، ليتفاجئ بوجود كتل من اللحم المتفسخة، فتح القفص واتجه نحو قطع اللحم لتفقدها، ليصدم بأن احداها كانت تشبه ذراع لإنسان.

فحص البقية، ليصدم مرة أخرى بوجود أصبع -البنصر- ليتمسمرمن الذهول، ويقوم بالاتصال في الشرطة على الفور.

الشرطة هاتفت بدورها والدي من اجل الاتجاه الى موقع الجريمة في الحديقة، لكن محموله لا يجيب، فقامت بارسال فريق من الشرطة والمحققين الى مسرح الجريمة، ليتفاجؤوا بعد تعيين الادلة ان كتل اللحم هذه تعود لجثة انسان.

تم عرض هذه الكتل بالاضافة الى أصبع البنصر على الطب الشرعي من أجل التبصيم، وبدأ فحص أصبه البنصر والذي كان متيبس بعض الشيء، فتم حقنه بسوائل لاستعادة مرونته قبل الطباع، وبالفعل تم أخذ البصمة، والتي تبينت لاحقاً أنها لوالدي "زميلهم مهند".

ارتجف جسد الجميع لذلك، وارتجّت شفاههم، وراحوا يتلفتون حول بعضهم: "مين الو مصلحة في قتل مهند؟! أكيد واحد من المشتبه بهم الأربعة، يا أخوه باسم، أو سائقة معتز، أو الخدامة ميّادة، أو مرته ميساء، لأنو مهند بحقق في القضية وقرب يشكف ملابساتها وهوية القاتل الحقيقي واللي هوّة واحد منهم؟! ويمكن يكونو كلهم أو جزء منهم متعاون في قتل جاسم؟! فقتلوه عشان يسكروا الملف والتحقيق معهم؟!

مش لازم نستبعد أي واحد فيهم، وكلهم تحت الاقامة الجبرية تا يبين مين اللي قتل مهند".

أعلنت حالة التأهب، وشرع المحققون على الفور في استجواب المشتبهين الأربعة جميعهم، ولكن جلهم أنكر أن له أي صلة بقتل مهند.

في هذه الأثناء كان الطب العدلي الجنائي منهمر في البحث في الأدلة المادية عن أي دليل يدلهم على هوية القاتل الحقيقي.

وبعد أيام من الفحص تبين وجود نتوءات واحتكاك إصبع بالكتل اللحمية الممزقة، فعادةً ما تُترك بصمات الأصابع والكف في مسرح الجريمة.

تم استخدام الطرق الميكانيكية الفيزيقية مثل التعفير بالمساحيق المختلفة والمتعددة من مساحيق البصمات الخفية البركانى بأنواعه الأسود الحريرى والرمادى الحريرى والأبيض والأحمر اللامع والفضى والذهبى والأسود الثقيل والأسود الفضى والرمادى الثقيل.

كما تم استعمال المساحيق المغناطيسية، والمغناطيسية الفلورية اللامعة، بألوانها المختلفة "أسود – أبيض – رمادى – أحمر – فضى" ولكن دون جدوى أيضا.

ولم تقتصر البصمات على الأصبع فقط، وإنما على بصمات لغير الأصبع وكثيرة منها راحة الأيدى وراحة القدمين وصوان الأذن، والجبهة، والأسنان، والعرق، والكوع، وظهر اليد، والمخ.

وتم استخدام نترات الفضة، النينهيدرين، أبخرة اليود، حامض الهيدروفلوريك، التبخير باستخدام "الميثيل"، الأشعة فوق البنفسجية، الأنتردين، وكان للأخيرة الدور الاكبر في كشف بصمة القاتل، فهي تستخدم لإظهار البصمات الملوثة بالدماء والتى قد تكون غائرة وغير ظاهرة، فيرش عليها بمادة الانتريدين فتظهر البصمة بلون أزرق قاتم.

بعد تحليل البصمة الكامنة، وجمع العينات والأدلة المادية، رفعت الشهادة الطبية المدونة لإجلاء الحقيقة المتنازع عليها، والتي بينت أنها عائدة لإبنه نعمان!!

تم ارسال مذكرة استدعاء لي للتحقيق معي..

عندما جلست في غرّة التحقيق، لم أنطق بكلمة واحدة طيلة ثلاثة أشهر، استخدم الشرطة كل الاساليب معي لكي أتكلم، ولكنها لم تنجح.

وضعوني ضمن سجناء، وبين عصافير، ولكنني لم أتفاعل معهم، عرضوني على اخصائية نفسية فاتنة الجمال ولكني لم ألقي بالا لها، وضعوني في سجن انفرادي، ولا يعلمون أنني كنت أعيش عمري في قبو لوحدي، ولم يؤثر العزل بي، بل على العكس تماما، كنت أجد حريتي في العزل الانفرادي.

إلى أن جاؤوا لي بصورة، وعندما قلبتها، واذا بها صورة إمرأة، عندما أمعنت النظر بها كانت تشبهني كثيرا.

سألني المحقق: "بتعرف مين اللي بالصورة؟"

أنا: "آه.. بعرفها".

المحقق: "من هي؟".

أنا: "هاي حبيبتي؟".

المحقق: "ايش قصدك.. انت الك حبيبة؟"

أنا بحزن مختَّر: "رحم اشتقت اليه".

المحقق بنظرات فاحصة: "وضّح بدون استهبال وفلسفة.. من هاي المرة؟".

أنا بصوته مخنوق: "الداعرة".

المحقق بصوت مشدود: "قصدك.. الزانية؟!".

أنا بصوت حبور: "الزانية أمي".

المحقق: "أمك؟!".

أنا وقد أخرت النظر صوب أعين المحقق: "أمي حبيبتي.. أمي العاهرة.. أمي التي قتلوها".

المحقق وعيناه مفتوحتان: "مين قتلها؟ احكي؟!".

أنا لامبالٍ: "هوّه".

المحقق بعصبية لانتظار الاجابة: "مين هوّه؟ تخلنيش انجن في هسّة؟!".

انا: "انت بتعرف مين هوّة! انت عارف عن مين بقصد؟ فش داعي للّف والدوران!".

المحقق بحذق: "طيب.. راح أكون مباشر، انت قتلت أبوك؟ انت قتلت مهند؟".

أنا ببرود: " قتلني قبل ما أقتله".

المحقق وقد أخذ يباغتني بالاسئلة حتى نال مراده: "بدي إجابة واضحة أكتر من هيك.. انت قتلت أبوك؟ جاوب: آه والا لا؟".

أنا بصرامة: "آه.. أنا قتلت أبوي".

المحقق شاعرا بزهوة الانتصار: "حدا ساعدك بتنفيذ هاي الجريمة؟".

أنا: " آه ".

المحقق: "مين؟"

أنا: "هيّو واقف وراك".

التفت المحقق كالمجفول خلفه، ولكن ما من أحد، فاشتعل غضبا: "بتتخوت علي؟ راح أورجيك نهايتك وعلى إيدي".

أنا: "ليش بدي أتخوت عليك؟ والله إنو واقف وراك!".

المحقق: "هل تظن أن حيلتك هذه ستنطلي علي؟".

أنا: "أي حيلة؟!".

المحقق بازدراء: "بدك توهمني هسّة انك مجنون مشان ما نصدر فيك حكم الاعدام! ، انت قتلت زميلي وحبيبي مهند يا حقير، والا هوّة أبوك، وهسّة لازم أوديك وراه عالقبر".

أنا باتزان: "أنا مش مجنون، ومش سائل شو بدك تعمل فيّة، أنا بعرف اني ميّت ميّت، بس في حدا واقف وراك".

المحقق ضاحكا: "الحمدلله أنك اعترفت أنك مش مجنون، انت هسّة اعطيتني الحجة مشان أعدمك يا خفيف، بس احكيلي عن العاهة اللي حكالك تقتل أبوك واللي هوّة واقف وراي هسّة؟".

أنا: " المسيح".

المحقق وقد خفت وتيرة ضحكه: "مين؟ المسيح!!".

أنا: "آه.. المسيح"، ثم لنطلق الفيلسوف على لساني: "أيكون فراري منه اليه.. أيكوني خلاصي به كخلاصي منه، والموت هو الحائل بيني وبينه، وما اجمل الموت حينما يكون من أجل المسيح".

المحقق وقد انفجر ضحكا: "سلملي على المسيح.. بدك تحكي اشي قبل الحكم عليك يا خالص".

أنا: "آه".

المحقق وهو ينظر الي باستعلاء: "ايش هوّة؟".

أنا: "سأراها قريبا".

بعد أن رفعت القضية للمحكمة لكي يبت فيها القاضي، تم استدعائي للمثول أمام القضاء، وقف القاضي وقال بفم ملآن: "حكمت المحكمة حضوريا على المتهم بالشنق حتى الموت".

ثم التفت القاضي الي وسألني: "هل يوجد طلب أخير نلبيه لك؟".

وقفت كالجبل وقلت للقاضي: "أيها القاضي.. ما كنا نعدّه طبيعي هو في الحقيقة غير طبيعي، وما كنا نعتقد أنه غير طبيعي أصبح طبيعي، أيها القاضي.. لقد أذن أبي وأخوتي وجميع من حولي بخراب عمراني وعطشي الذي لا يرتوي الا بقتل الحيوانات، أيها القاضي.. هذا زمن تطرح فيه الاسماء بغير أسمائها حيث يقدم السفاح ذاته كضحية، والضحية تقدم للإعدام، أيها القاضي.. الموت لا يرعب شخصا سلبت منه حياته اصلا، بل هو الباب للقاء رحم اشتقت اليه، حمل بي وبمنجلي الذي حصدت به روح من أزهق روح امي، وبمن قذف في عنقه نطفة الحرام، أيها القاضي.. حيث كان الطبيب يسحب جسدي من تحت انقاضي، كنت تلميذاً في حضن قاتلي، الذي كان المحرك الأول للانحناءات الخفية وركامي الذي أنجب مجرما، أيها القاضي.. عندما يختم جسدي الممزق رحلته، وينظف ألم الحياة من قلبي المنكسر، سيشيعني المسيح في جنازة فردية الى جنة وردية، وستعملون أن الحقيقة التي يختبئ خلفها والدي الشاذ أن حبيبه الاول هو من قتل أمي، وحبيبه الثاني هو من قذف نطفة الحرام فيها".

الفهرس

إهداء ٥

تمهيد ٦

قبل أن نبدأ ٧

الفصل الأول "تمنيت لو كنت كلبا" ٨

الفصل الثاني "نطفة حرام" ١٦

الفصل الثالث "ثلاثي ماكدونالد" ٢٢

الفصل الرابع "من القاتل" ٣٩

الفصل الخامس "أنا المسيح" ٤٧

الفصل السادس "رحم اشتقت اليه" ٥٥